وزارة الثقافة
الهيئة العامّة السورية للكتاب

الحالِم الأخير

وجدان يوسف أبو محمود

قصص

2022

الحالِم الأخير

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

وجدان يوسف أبو محمود

الحالِـم الأخير

قصص

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

-٣-

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر
(بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

الحالم الأخير: قصص / تأليف وجدان يوسف أبو محمود.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٢م.-١٦٠ص؛ ٢٠سم. (قصص).

١- ٨١٣,٠١ م ح م ح ٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ م ح م ح
٣- العنوان ٤- أبو محمود

مكتبة الأسد

قصص

كيف لا نحلم

وكلُّ ما نفعلهُ على هذه الأرض

له دافع واحد...

لا نريد أن نموت.

الحالِم الأخير

كانت المدينةُ تغصُّ بنوعٍ عجيبٍ من الحالمين، أُناسٌ غامضون، دون كيشوتيّون، لا يتكلّمونَ إلّا لماماً، أشبه بممثّلين صامتين، أقرب للمجانين، يعيشون بين الآخرين كالأخيلة، يسرّحونَ شعورهم في تمهّلٍ، يتعطّرون في تأثُّرٍ، يتأنّقون، ويفتّشون عن زوايا قصيّة ينفردون فيها بعوالمهم الخاصّة، برارٍ، مقاهٍ، منتزهات، يدخلونها منهكين، مثل جنودٍ قهرتهم معركةٌ فظيعةٌ لا انتهاء لها، يعتزلون الصّخب، ويمضونَ وقتاً مع أوهامهم المريحة برفقةِ كوبِ شايٍ أو سيجارةٍ، يتصفّحونَ أحلامهم في حنوٍّ، يشحذونَ ذكرياتهم، يرمّمون قلوبهم المكسورة بأشياءٍ لا نفهمها ولا نراها، أشياءٍ كالأحضان تلمعُ في الدّماغِ تارّةً وفي القلبِ تارّةً أُخرى، محضِ تتمّاتٍ بالغةِ القيمة لحيواتهم الرّكيكة الخالية من المعنى، يغوصونَ فيها بكلّيّتهم، ثمَّ يغادرون، ويعودون إلى الحياة محاربين أشدّاء.

وفي يومٍ اشتدَّ الفقرُ وساءتِ الأحوال حتى باتَ من الصّعب تمييزهم من سواهم، فالعوزُ منعهم من احتواءِ انعزالاتهم في دلالٍ، ثمَّ إنَّ النّاسَ كلّهم باتوا في السّكوتِ نسخاً كربونيّةً منهم، أحدهم فحسب لم يتنازل عن نمطِ عيشتهِ الدّقيق، ظلَّ مستعدّاً لدفعِ تكاليفِ جنونهِ، «سيّد خالد» يكادُ يكونُ آخرهم، وعلى الرّغم من أنَّ اسمهُ مركّبٌ من الكلمتين معاً، فإنَّ أحداً لم يناده يوماً إلّا أسقط متعمّداً الأولى، إذ كيفَ يكونُ سيّداً من يعملُ حمّالاً بأجرةٍ، يعتلُ أوامرَ النّاس، يقبّلُ أكفّهم، وتركبُ سلعهم وبضائعهم على ظهرهِ المحنيِّ جيئةً وذهاباً.

سيّد خالد ليلاً لا يشبهُ نفسهُ نهاراً أبداً، شخصيّتان عدوّتانِ يتناوبُ على تجسيدهما بدرايةٍ وتجلّدٍ، لا يكاد الظّلام يحلُّ حتّى ينفتحَ بابُ القبو الذي يقطنهُ، يخرجُ ببزّةِ الجوخِ الباهظة، يتأبّطُ حقيبةً جلديّةً غامضةً، تترنّحُ ربطةُ عنقهِ مع مشيتهِ الواثقة، ويفوحُ عطرهُ الفريدُ في الزّقاقِ فيدركُ أهلُ الحيِّ أنَّ العفريت الذي يسكنهُ قد استيقظ، يقصدُ سيّد خالد برجاً وسطَ المدينة، ونحو الطّابقِ السّابع يهرولُ على الدّرج كالغزال، في مقهىً فارهٍ قليل الزُّبنِ يحجزُ طاولةً مديدةً لنفسهِ، يفردُ فوقها كلَّ أوراقِ الحقيبة، ويشرعُ في الكتابةِ كالمسحور.

يُهلّلُ النُّدُلُ لمجيئِهِ اليوميّ، يبالغونَ في تلميعِ اسمِهِ الكامل، حتّى أنّهم يُدلّلونهُ بمضاعفةِ الأحرف، فيمسي فجأةً «السّيّد سيّد خالد»، يجلبونَ لهُ النّبيذ بإشارةٍ من إصبعِهِ، تحومُ نظراتهم حولهُ كطيورٍ كاسرةٍ تنتظر مصرع فريستها، عندما يسكر يُصبحُ أكثر كرماً، تنتفضُ أخيو لاتهُ العزيزة، فينفضُ لهم محفظته.

في المقهى المشرفِ على اصطخابِ المدينة يستشفي من أذيّاتِ الحياة، يقذفُ عواطفهُ كالأحجار في بحيرةِ العالم السّاكنة، يعرف أنّهم يخالونهُ شاعراً أو روائيّاً، يعرفُ أنّهُ سينفقُ ما جناهُ طوالَ اليوم، يعرفُ أنّهُ سيجوعُ وسيتخلّفُ عن تسديدِ أجرةِ القنِّ الذي يعيشُ فيهِ، يعرفُ أنّه لن يتزّوّج ولن ينجب ولن يتركَ أيَّ أثرٍ وراءه، لكن أكثر ما يعرفه أنّه يشتري السّعادةَ يوماً بيوم، تلكَ التي يقضي الآخرونَ أعمارهم بحثاً عنها، يكتبُ الرّسائلَ لحبيبته المتخيّلة، والتي عمّرها خليّةً خليّةً، وفصّلَ لها ملامحَ وصوتاً ورائحةً وملابسَ وأساورَ وأقراطاً، تتزحَّفُ عيناهُ نحو الشُّبَّاكِ الوطيء في منعرجٍ ضيِّقٍ حفَرَتْهُ من قبل أصابعُ الخيالِ، تسرحان طويلاً في الزّجاج المبتلّ، وبعد الكأس الأولى تخرجُ الضّحكةُ مع الجسد الأهيفِ من ورق الرّسائل...

الجوُّ باردٌ والموسيقا حزينة، لا صوتَ إلّا قطقطةُ المطرِ وطقطقةُ الأقدامِ الرَّاكضةِ بلا انتهاءٍ، لا ملمسَ إلّا لزوجَةُ الخيالاتِ وهيَ تهفُّ، ولا رائحةَ سوى شذاها، صامتاً يلتذُّ بالفرح، مُهَمَلاً كعِلَاقَةِ الثِّيابِ التي لا يراها أحدٌ، غارقاً كبزّةٍ خاويةٍ في كُرسيِّهِ المعتاد، يُدَخِّنُ أنفاسَهُ العميقةَ، يقيسُ حرارةَ الأشياء والتّعاسةَ الضّافية على الأكواب الفضيّةِ الوحيدة، يستلُّ وجهها من جيبِ الذَّاكرةِ المُفلِسَةِ، يتَشَمَّمُهُ بتؤدةٍ، يَشْهَقُهُ، يزْفُرُهُ، يُشذّبُ بمقصّاتِ التّلهّفِ نظرتها وبسمتها، ويُعَدِّلُ نظَّارَتَهُ الطِّبّيّةَ كيما يراها بأَدَقِّ ما يَسْتَدْعي الاحتفال، لكنّها سرعان ما تذوبُ وتتبدَّدُ... كما لم يحدث البتّة من قبل.

يطلبُ كأساً ثانيةً، لكنّها لا تأتي، يحلُّ العقدةَ في ربطةِ عنقه، يُخرجُ زرّاً من عروتهِ أسفلَ الياقةِ البيضاء، يعبُّ نفساً طويلاً ليحتالَ على اختناقهِ، يطلبُ قهوةً، يطاردُ هدفاً غير مرئيٍّ فنجاناً فآخر، يشربُ السّوادَ كلّهُ ولا تأتي، وبعدَ ساعاتٍ من المخاضاتِ العسيرةِ تهرعُ المقلتان البائستان إلى النّافذة، هنالكَ بالضَّبط حيثُ حطَّ عصفورٌ مبلَّلٌ على الإفريز، كالفجاءة يشعُّ وجهها من الغباشةِ الكثيفةِ، فاتنةً كالعادةِ، مغناجةً، يتطلَّعُ إليها بودٍّ من خلفِ الزُّجاجِ المخَدَّدِ بالأنهارِ الصَّغيرةِ، يعاتبها، يتأمَّلها بحنوٍّ، فيما هي

تُمزِّقُ الضَّبابَ الرَّقيقَ وتتقدَّم، تفتحُ الشُّبَّاكَ بتأنٍّ من الخارج، فيُذعرُ العصفورُ ويطير، فيما تعبثُ الرّيحُ الدفّاقةُ بأوراقهِ، يمتقعُ، وينقبضُ صدرهُ، يتلفّتُ حولهُ، لا أحد يعيرها بالاً، في حين تبدو لهُ واقعيّةً بإفراطٍ، يفركُ جبهتهُ، يخال أنّ الثّمالةَ فعلت فعلها، لكن الطّبيعة تميلُ لتصديقها، فالعصافيرُ والرّياحُ لا تكذبُ ولا تسكر، تقفز على الأرض، تمشي نحوه، لا يندُّ فمها عن بسمةٍ، تهدأ لحظةً الأشياءُ كلّها، أحاديثُ الزُّبنُ وهديرُ المركباتِ على الطّريقِ السّريع، بضعُ ثوانٍ صافيةٍ تمرُّ وكأنَها النّسمة، ثمّةَ تأثيرٌ غامضٌ للصّمت، مزيجٌ من القوّةِ والرّقةِ والسّحر، بيدَ أنَّ تركيبتهُ لا تظلُّ رائقةً، تتلّمها وقفتها التمثاليّةُ أمامه، ونظرتها العميقةُ الثّاقبة، يظنُّ وهلةً أنَّ أُمنيَةً ضالَّةً قدْ تَغَلَّبَتْ على نباهَتِهِ، فالتبسَ الخيالُ بالحقيقةِ، واختلطَتِ المشاهدُ بالصُّور، يخلعُ نظَّارَتَهُ، يمسحُ بكمِّهِ عدسَتَيْها، ويعاودُ ارتداءها، فيتأجّجُ من جديدٍ المنظرُ ذاتُهُ، امرَأةٌ بفستانٍ رقيقٍ وزُمرُّدَتينِ تلمعانِ في العينينِ الهادئتَيْنِ، يحسُّ أَنَّهُ يتهاوى عن كُرسيِّهِ فلا يبلغُ أرضاً، يديرُ فنجانَ قهوتهِ الباردةِ بينَ يَدَيْهِ ليُخفي ارتباكَهُ، ينظرُ حولهُ كالآثمين، يداري الارتباك في ملامحه، يتساءلُ بفمٍ مغلقٍ:

«هيَ ؟؟؟»

«هيَ!!! »

«هيَ».

يقرصُ بيدِهِ يدَهُ الأُخرى، ثمَّ يرفَعها إلى قلبِهِ، من أنَّهُ مقفلٌ، لم تخرجْ منهُ، إذنْ من أينَ جاءَتْ**...!!**؟؟، يجزعُ من هولِ التّشَتّت، يختَلسُ النَّظَرَ بزاويَةِ عينهِ، لا تزالُ على وقفتِها وكأنْ لِتُهَدِّئَ تَهيُّجَ الطَّقسِ، يُحاجُّ عقلَه:

«لم تذهب الثّمالةُ بعقلي بعد، هذا الثَّوبُ جديدٌ عليَّ، لم أتصوّرهُ أنا، لا لونهُ، ولا قماشَتُهُ، حتَّى الشَّالُ على كتفيها غريبٌ عن موادّ خيالي، هذه المرأةُ تشبهُ امرأةَ الوهم لكنّها... ليست هي».

يَفْرُكُ كَفَّيْهِ أحدهما بالأخرى، يراقَبُ عمَّالَ المقهى، كيفَ لم ينتَبِهْ أحدٌ منهم للحسنِ الرَّابضِ أمامه**!**، يتطلّع إلى رسائلِهِ، يقرأ خطفاً:

«اشتقتُ إليكِ ولكنّني لستُ مثلك، لا أجنحةَ لي، لا ريشَ لي، ولا أملَ في التَّحليقِ نحوكِ»

«اشتقتُ إليكِ ولكنّني رجلٌ حالمٌ، والحالمونَ يتمنُّونَ فقط، والأماني تخافُ اللّمس، تخشى أنْ ينبتَ لها جلدٌ ونبرةٌ فتنقلَبَ إلى حقيقة».

«اشتقتُ إليكِ... ولكنّني متعبٌ منكِ، ومرهقٌ من طولِ انتظاركِ»

تتأرجحُ نبضاتُهُ بينَ الغبطةِ والذُّهولِ، لا يُصدّق إلحاحَ المشهد، يتمالك قلبَهُ، ويجهدُ يضبطُ نَفَسَهُ المتَسارعَ مرَّةً أُخرى، يعبقُ المقهى الصَّموتُ بأنفاسها، تبدّدُ إصقَاعَهُ، فيموجُ الهواءُ بالحنين، وتلتبسُ الحبيبةُ في عينيه، فلا يُميّزُ أكانت امرأةَ المكاتيب ذاتها أم كانتْ صبيَّةً من لحمٍ ودمٍ، يُقنعُ نفسهُ بإنّها حلمه، يخافُ فجأةً من وضوحه، يخافُ أنْ يظهرَ خبلهُ في المكانِ الوحيد الذي أشعرهُ بأَنَّهُ إنسانٌ محترم، تتبدّلُ لحظةً الأهداف، تختلطُ الأولويّات، الإنسان كائنٌ معقّدٌ عصيٌّ على الفهم، يكابرُ، يخنقُ لهفتهُ، يتهرّبُ من تحديقتها الدّافئة، ينتظرُ أنْ تتلاشى كما لم يكد يحدثُ، سيفتّتها بتجاهله، ستتهاوى حُتاتاً خياليّاً بلا وزنٍ، ستذروها إغماضتهُ، وسترجوهُ في الغدِ يعيدُ تجميعَها، يصَوَّبُ نحوها نظرةً باردةً، إلّا أنّها تصمدُ أمامهُ بخيبتها الجليّة، بالماءِ يقطرُ من شعرها، تتصفَّحُ عينيهِ بفمٍ ينطوي على كلامٍ كثيرٍ، تحاولُ استنطاقهُ بـ «مرحباً»، لكنّهُ لا يجرؤ على الـ«أهلاً»، يخشى أنْ تفتضحَ أوهامهُ، يخشى أن يبدو المجنون، تخفقُ في انتزاعِ بسمةٍ أو نظرةٍ حكّاءةٍ، يشيح عنها قلبهُ بفتورٍ، يتكسّر، يخبطُ الطّاولة برأسهِ، ويبكي.

يرفعُ رأسهُ فلا يجدها، يسمعُ صوتَ انهيارٍ من داخلِهِ، «ماذا فعلت؟!» ينبضُ السُّؤالُ الممضُّ في حنجرته، لن يحسمَ واقعيّةَ ما حدثَ إلّا بإشراكِ طرفٍ حياديٍّ، بوجهٍ كامدٍ ينادي عاملاً يافعاً، يدسُّ رسالةً في يده، ويهمسُ شيئاً في أُذنه، النَّادِلُ المذهولُ يتوقّفُ أمامَ الشّباك العالي، يتملّى السُّحبَ القريبةَ والسَّماءَ الشَّاحِبَةَ، ينظرُ إلى أسفل حيثُ الأوتوسترادُ السَّريعُ، يتَطَلَّعُ إلى زَميلِهِ الذي يُشيرُ إلى اختلالِ الزَّبونِ بغمزةٍ مستخفيةٍ، ثُمَّ إلى الرَّجاءِ يقطُرُ منَ العينينِ الغائمتَيْن، يفتحُ النَّافِذَةَ ببطءٍ، تلفحهُ الرِّيحُ الباردةُ، وينالُ المطرُ من وجههِ في كلِّ موضعٍ، يرمي الرِّسالةَ المطويَّةَ بهدوءٍ، فتطيرُ بخفَّةِ طيَّارةٍ ورقيَّةٍ، يلتفتُ إلى الرجل مبتَسِماً، يقولُ قبلَ أنْ يلمَّ الفناجين كلّها: «وصلت»، يقفُ سيّد خالد معقودَ اللّسان، يتقدَّمُ على وقعِ القهقهات والوشوشاتِ وقرقعةِ الصّواني النّحاسيّة، وعلى مرأى النّدل السّاخرين يُخرجُ رأسهُ من الشُّبّاكِ المفتوحِ، يفكّرُ قليلاً بـ «السّيّد سيّد خالد»، تدغدغُ الكلماتُ القصيّاتُ إنسانيّتهُ، لكنَّ شيئاً حارقاً يشدُّهُ من قلبهِ، فيُغمضُ عينيهِ المحمرّتين... ويخرج.

فساتين للبيع

ما زَالَتْ تَنْتَظِرُهُ، تزرعُ جَسَدَها في الشُّرْفَةِ الصَّغيرةِ كأَنَّهُ أَصيصُ الحَبَقِ، كأَنَّها جولييتُ، لا تَكُفُّ عن الضحك، تُقْنِعُ اليائسات بيقينٍ بادٍ بأنَّ الأمنيات القديمة تتفتّحُ في المستقبل، وأنَّ كلّ ما عليهنَّ فعلهُ هو سقايةُ الحاضر واحتضانه، توزِّعُ الحُبَّ سكاكرَ على تلاميذِ المدارس، تخربشُ اسمهُ في الهواءِ كالضّبابة، تُصيّرُ آمالها صوراً، وتحملقُ مشدوهةً في نقطةٍ زرقاء بعيدةٍ، هُنَالِكَ حيثُ اختَفَى مرَّةً وجههُ، شيَّعَتْهُ آنذاكَ بتلويحةٍ خجولٍ، ذابَ هو في الغيبِ وعانقت هي نفسها، خيَّمَ مذّاك سكونٌ ثقيلٌ على أيَّامها، تلكَ التي غرقتْ في خدرٍ طويلٍ.

انقَضَتْ سنواتُ عمرها وكأنّها الثّواني، صوته بمرورها باتَ أعمقَ، شَكْلُهُ صارَ أبهى، كان يزدادُ روعةً في كُلِّ يومٍ، يتطوّر بسلاسةٍ كالشَّخصياتِ السَّاحرةِ في الحكايات الكلاسيكيّة، ينمو كثيراً... ليصبحَ السَّماءَ والسَّاحاتِ ونهاياتِ الطُّرقِ والنُّقطةَ الزرقاءَ الباهتةَ حينَ تلوحُ في الأُفقِ.

عقَدَتْ مع ذكرياتها معاهدةَ إخلاصٍ مفتوحةً، زادَهُ البعدُ اقتراباً، فالمسافاتُ غالباً ما تحتالُ على الأرقامِ وأجهزةِ القياس، رافقها في كلِّ وقتٍ، رافقتهُ، لازَمَتْهُ، حتَّى أَنَّها أَنْجَبَتْ مِنْهُ في السِّرِّ حوضاً هائلاً من المنثورِ.

طَوَتْ أيّامها تسقي الوردَ، تصغي إلى صليلِ الماء وهو يتسربُ من بين حبَّاتِ التُّرابِ برفقٍ مرتِّلاً اسمَهُ، تمطُّ خصرها، وتتكئُ بمرفقيها على درابزين الشُّرفة، توزِّعُ نظراتها الرَّقيقة بدهشةٍ على العالمِ الهادرِ، الممتلئِ باللّغطِ، والمكتظِّ بالتّفاصيل، كما لو كانَ عالماً منفصلاً عن ذلكَ الذي تعيشُ فيهِ، تتملّاهُ حتّى التّعب، تحصي المركبات وعرباتِ بيعِ الخضار، تصغي إلى امتزاجِ الأصواتِ، ترنو إلى اختلاطِ المشاهدِ والحيواتِ السَّريعةِ، كلُّ شيءٍ كانَ يبدو لها جميلاً وغريباً أيضاً عن تلكَ الحياة السّرّيّة المترقرقة كالحممِ تحتَ جلدها، كانتْ تدخلُ بعينينِ يائستينِ، ثمَّ تُغْلِقُ خلفها مصراعَي البابِ، فتُظلمُ الشُّرفة، و ينغلقُ المنفذُ الأوحدُ بينَ العالمين.

شاعَ يوماً خَبَرُ مَجيئهِ، فانفرجَتْ أساريرها، حَنَّتْ شَعرَهَا، وباعَتْ مِذْياعاً لتبتاعَ عِطْراً، دَعَكَتْ كوعيها بنصفِ ليمونةٍ، وفردَتْ على وجهها هريسَ التُّفاح، ثُمَّ انهمَكَتْ أَيَّامَاً تَخيطُ فستاناً

تلقاهُ بهِ، عندَ الثَّنياتِ كشكشةٌ، تحتَ الياقةِ تطَريزاتٌ، «بينسات» تناسبُ انحناءةَ الخصرِ، أَهلَّةٌ مِنَ قَصَبٍ لَمَّاعٍ، زهراتٌ من خرزٍ بارقٍ، تَدلّى الفستانُ الفاقعُ في الخزانةِ طويلاً إلى أنْ أَفْسَدَهُ الغبار، خافَتْ أَنْ يرجعَ فجأةً فخاطتْ غيره إلى أَنْ غَصَّتْ الخزانةُ بالسَّاتانِ المُبَهرَجِ والحريرِ والمخملِ واللِّيكرا والكثيرِ مِنَ الكشكشاتِ والتطريزاتِ البديعةِ، مَعَ مرورِ الوقتِ كَانَتْ الفساتينُ تَطولُ أَكْثَر... تغْمَقُ أكثَرْ... تتناسَبُ مع عُمرها الآخذِ في الذَّوَبَانِ، كانتِ تحسُّ بأنَّ جسدها يخذلها كثيراً... إنّهُ يبلى بأسرعَ ممّا تعبرهُ دوَّامةُ الأيَّام، ومع كلِّ ما أفسدَهُ الوقتُ فيها فقد ظلَّتْ تقاومُ بشراسةٍ شعورها المضني بالاستسلام.

جافاها النَّومُ ليالِيَ طوالاً، بحثَتْ عن سكينتها في الآخرينَ، أخذتْ تتفرَّجُ على النَّاسِ من شرفتها العالية، تلاحقُ خطَواتهمْ... تعابيرهم... اتّجاهاتهم، تتسقَّطُ أَخْبَارَهُ على ألسنتهم، تستمعُ ولا تسمع لكأَنَّهُم يتحدَّثونَ لُغَةً أُخرى، مَرَّةً يقولونَ تزوَّج ومرَّةً رُزِقَ طفلاً، مرَّةً سيرجعُ ومرَّةً لنْ يرجعَ، كانتْ تتمتمُ برقّةٍ وكأنْ لتُسْمِعَ نفسها:

«النَّاسُ يعشقونَ رشق الغيب بالشَّائعات... والحقيقةُ ضائعة».

تنسحبُ من عالمهم، تسدلُ عليهمْ ستائرها، ثمَّ تختلي بمرآتها حيثُ الحقيقةُ الكاملةُ، تطلي شفتيها بعدّةِ طبقاتٍ سميكةٍ من أحمر شفاهٍ بلونٍ قرمزيٍّ متألّقٍ شديدَ الشّبهِ بمعدنِ «الزنجفر» الذي استخدمهُ رسّامو الكهوف قبل «٢٠٠٠٠» عامٍ، الزنجفرُ الذي أعارها درجَتَهُ الفاتحةَ كانَ يعني بالفارسيّةِ دَمَ التنّين وصارَ يعني مذ شاركها لونهُ دمها الذي انفرطَ من التَّعبِ على شفتيها الحارَّتين.

كرسَّامي الكهوف كانتْ تنتظرُ مغيب الشَّمس... هدأةَ الكائناتِ وانطفاءَ أضواءِ المدينة، تدسُّ جسدها كالحلمِ تحتَ الملاءاتِ، تُغلقُ عليها جفنيها وهناكَ بالضَّبطِ تنقشُ على جدرانِ عتمتها تفاصيلَ اللقاء...

لمْ ينفد قلبها يومَاً، لم تيئسْ، لهفتُها كانتْ أشدَّ مِنْ تَعَقُّلِها، سيرجعُ وسيكونُ تعويضها الحقيقيَّ عن الحياةِ التي توقّفَتْ بعدهُ، وبذلكَ تتحقَّقُ العدالة، واثقةً كانتْ بوجودِ ميزانٍ ما في هذا الكونِ الرَّحبِ، مؤمنةً كانت بعودَتِهِ وبعبارتِهِ الأَخيرة:

«لا تسمعي إلّا مِنْ قلبي».

كانَتْ تَشْعُرُ كُلَّمَا خَذَلَهَا عَقْلُها بأنَّ هنالكَ كائناً شفيفاً لطيفاً يُقيمُ في أذُنِها، وظيفتُهُ الوحيدةُ أنْ يقرعَ جرساً يطنُّ في مسمعها بكلمةٍ واحدةٍ: **«انتظريه»**.

الأثوابُ تتداعى، تخيطُ غيرها، الوردُ يذوي، تزرعُ جديداً كلَّ فصلٍ، تراهُ في كُلِّ العابرين، وحينما تهرأ بشرتها النّاعمة تَهُشُّ عنها الموتَ بطَيفِ ملامحِهِ، تُقَاومُ المَرَضَ بعَيْنَيْهِ الدَّافئتَيْن، وتُحاربُ الخَوفَ بابتسَامَتِهِ، إنَّها تتَنفَّسُ لترَاهُ.

أمسى مع الوقت النُّقطَةَ الزرقاءَ الباهتةَ، تلكَ التي ابتلعتهُ لحظةَ غاب، تلكَ التي اكتَسَتْ زغباً فتَغَيَّرَ ملمَسُها، إنَّها النفقُ الضَّيقُ الذي سيعودُ منه، هذا ما تثقُ بهِ جيّداً، تنهمرُ الأحلامُ منها كلَّ ليلةٍ فيجيءُ باسماً ليهديها الوردَ و قلْبَهُ.

«أنتِ تُرَبِّينَ أمَلاً ميّتاً» قَالَتْ لها جارَتُها وهي تستشرِفُ المستقبَلَ في الفنجانِ المنقوشِ، أهَبَتِ العبارةُ مقلتيها، ومن يومها لمْ تَعُدْ تَشْرَبُ القهوة، لم تعد تنظرُ في المرايا كي لا تلمَحَ ذُبُولَهَا أو تُصَدِّقَ الزَّمَنَ. تَجَنَّبَتِ الآخرين ثُمَّ انسَلَّتْ من بينهم وازدادتِ التصاقاً بشرفتها، حَمَلَتْهُ طَيَّ أَجْفَانِهَا، لنْ تخذِلَ انتظارها، لن تيئسْ ...

وفي غَمْرَةِ تلَهُّفها إلى النُّقطةِ البعيدةِ، وقَعَتْ على ما انتظَرَتهُ... فالوردُ الذي نثَرَتْهُ بِذراً صار شجيرات متشابكة، تسامقَ، وتدلّى، وحوَّلَ المكَانَ إلى فردوسٍ يقطفُ نظراتِ المَارَّة، والأولادُ الذينَ أودَعَتْ سكاكرها في بطونِ أَكفِّهِمْ صاروا شباباً وشابَّاتٍ يقصدونها ليودعُوا في صدرها أسرارَهُم وقلوبهم، كانتْ تعي ذلكَ جدَّاً وتتكِئُ عليه، أمّا الذي لمْ تدركهُ حقَّاً فهو أنّها باتت تبتعدُ خطوةً فخطوة عن أيِّ جلبةٍ مهما صَغُرَتْ... باتتْ تخرجُ ببطءٍ من الحياة.

* * *

سمَّاها أهالي الحيّ «السَّجينة»، إذ لم يحدثْ أنْ صادفها أحدهم في السُّوق أو في الشَّارع أو في أيٍّ من المناسباتِ الاجتماعيّةِ الكثيرةِ، ومع ذلكَ فقد كانت شُرفتها المزدانةُ بأصنافٍ هائلةٍ من الورودِ أشبه بحديقةٍ عامّةٍ، بتلَّةٍ صغيرةٍ ملوّنةٍ تخفّفُ عنِ الحيّ المكتظّ وحشتهُ وترسلُ صوبهُ كلَّما استاءَ دفقاتٍ من العبير، لقدْ أمسَتْ مَعْلَماً مميّزاً للمنطقةِ بأكملِها، بعضُ الوافدين يتفاخرونَ بصورة «سيلفي» حينما تكونُ شرفةُ الوردِ هي الخلفيّة الطّاغية، ويا للسَّعادةِ لو حدث وأنْ المرأةُ الوحيدة، تجلسُ هنالكَ كالأميراتِ تعقدُ يديها أمامها وضفيرتَيْها الفضّيّتَينِ خلفَ ظهرها، ترفعُ رأسها، تمدُّ عنقها، تطلَّعُ

كثيراً إلى الجهةِ التي تُقبِلُ منها الحافلاتُ المحمَّلةُ بالعائدينَ من مناطقَ بعيدةٍ، تعلِّقُ عينيها في ترقُّبٍ هناك، ثمَّ تمضي جلَّ يومها على مقعدها الخفيض، صامتةً، مبتسمةً، مستغرقةً في خيالاتٍ مبهمةٍ، توزّعُ نظرات الحبِّ عليهم من أعلى، تلك التي تمنحُ الأشياءَ في الأسفل طاقةً خفيَّةً، ترفعُ من حرارةِ المكانِ، وتزيدُ من خفَّةِ الهواءِ، كلُّ شيءٍ يُزهرِ من نظرةٍ واحدةٍ، بعضهمْ كانَ يراها مشعوذةً، وبعضهم ساحرةً، لكن ما اتّفقَ عليهِ الجميع هو أنّها كانت تُشيعُ حالةً عصيَّةً على التّفسيرِ من الطّمأنينة والجمال.

لا يمكنُ لشيءٍ أنْ يَعُوقَها عن العنايةِ بنباتاتها، حتّى أنّهم يتساءلونَ كلّما تأخّرتْ أيّاماً عن فتحِ باب الشُّرفةِ أكانَ الموتُ قد اختطفها، يسألونَ عن أحوالها، يهرعونَ إليها، يدقّونَ البابَ للاطمئنانِ، حتّى أولئكَ الذينَ لا تربطهم بها معرفةٌ شخصيّةٌ. لا أحد يعلمُ عمرها الحقيقيّ، تبدو أحياناً في الثّلاثين وأحياناً أُخرى في الخمسين، يُخيَّلُ إلى الكثيرِ أنَّها ليسَتْ آدميّة وإنَّما طيفٌ جوَّالٌ لا يخشى سطوعَ الضَّوء ولا أعينَ المتربّصينَ، يُضفي حزنها شحوباً حيثما تنظرُ، وتخلقُ بسمتها فرحاً من العدم... حتى إذا ما حدثَ أنْ أمطرَت من دون توقّعٍ لنظرَ النَّاسُ إلى عينيها الغائمتين، بدتْ كأنَّها تُوزّعُ الفصولَ من أعلى... توزّعُ الحظوظَ والعدالات.

كانتِ امرأةً قمحيّةَ اللّونِ... شاهقةً بما يكفي لتوحي بالغموض، وغامضةً بما يكفي لتوحي بالغربة، وغريبةً بما يكفي لتمنحَ الأمان، فالغرباءُ غالباً ما يخطفونَ الثّقة، لا نعرفهم لنشكَّ فيهم، لا يعرفوننا ليصدّروا عنَّا اعتقاداتهم ومحاسباتهم، كثرٌ يشتهونَ الصُّعودُ إليها بأيِّ حجّةٍ والتّحدّثَ معها والإفضاءَ لها بأسرارهم، كثُرٌ أيضاً من فعلوا...

* * *

بَاغَتَها في إحدى الأماسي، كَانَ المطرُ غزيراً والرّياحُ تزفرُ غلَّ المتعبينَ أجمعهم، من بابِ الشُّرفةِ المفتوحِ كانتْ أحاديثُ الشَّجرِ تنسربُ خفيفةً نحو الدَّاخل، نشَّفَتْ شعرها المغسولَ جيّداً، ثمَّ نفضَتْهُ إلى الخلفِ، وتركتهُ ليجفَّ، تهالكتْ بعدها على أريكةٍ في الصَالةِ الضَيّقةِ، وفي هدوءٍ كوَّرتْ نفسها، راحَ وهجُ التّلفازِ يرفُّ على وجهها بشدّاتٍ متباينةٍ، يغويها بأخيلته وبتعاقبِ ظلالهِ فوقها، إلّا أنّها لمْ تنظرْ إلى شاشتهِ على الإطلاق، ولم تفكّر أصلاً بقطعِ التيّارِ عنه، وإنّما أبقتهُ مؤنِساً كعادتها في لياليها الطّوال، تنامى إليها صوتُ لهاثٍ يصعدُ الدّرج، سعالٌ متقطّعٌ، خطواتٌ ثقيلةٌ تقتربُ كما لو أنّها تعرفُ طريقها جيّداً، توقّفَتْ خلفَ البابِ تماماً، تهافَتَتْ

أصابعها إلى الأعلى، وبحركاتٍ «أتوماتيكيّةٍ» طفقتْ تضفرُ الشَّعرَ المبتلَّ، وكأنَّ على اللّص أو المجرم أو الضّيفِ الواقفِ في الخارجِ ألَّا يراهُ مفروداً، وكأنّما يُصبحُ أدنى تغييرٍ يترافقُ مع تقدّمنا في السّنِّ على عاداتنا أو هيئاتنا التي اعتدنا الظّهورَ بها جريئاً أو محرجاً وفي أبسطِ الأحوالِ غيرَ مفضّلٍ، سألَتْ بنبرةٍ مرتعشةٍ:

«من؟»

جاءتها الإجابَةُ واضحةً وبسيطةً:

«أنا»

فتحت بحذرٍ قبل أن تتبيَّنَ هويّةَ الطّارقِ فقد كانت تلكَ الـ **«أنا»** كافيةً باعتقادها لتنمَّ على صدقٍ وقُربٍ وحرارةٍ، وفجأةً دلفَ طيفهُ بهدوءٍ، برهبةٍ، بتراخٍ، دخَلَ مبتسماً، كانتِ العتمةُ تقطرُ من كمَّيْهِ، تكشَّفَ جسَدُهُ إزاءَ تراقصِ أشعّةِ التّلفاز شبراً شبراً، بنظرةٍ حانيةٍ حيَّاها، تفرَّس منْ فورهِ في ملامحها، طَبْلٌ ضَخْمٌ راحَ يُدَقُّ في حَنَاياها، ارتبكتْ، حكّتْ كوعها، مسّدَتْ جبينها، شعرَتْ بأنَّ عظامها قدْ تخلّعتْ في مكانها وأنَّ مفاصلها تخلخلتْ بما يكفي لتنهار، بدا بدنها كأنّهُ مرتهنٌ لأحدٍ آخر، استجمعتْ نبضاتها، تماسكتْ، ظلَّتْ واقفةً

وكأنّما على قوائمِ روحها، دخلَ بلا كلامٍ، تبعتهُ، غاصتْ قدماها في الحذاءِ القريبِ، فَرَكَتْ عينيها لتوقنَ بأنّه ليسَ صنيعَ اختلاجٍ حراريٍّ، عايَنَتْ سحنتهُ، وهيئتهُ المرتَّبة، وثيابهُ الأنيقة... شعرهُ ابيَضَّ أكثر لكنَّهُ شعرهُ... جَسَدُهُ امتلأَ أَكْثَرْ إلّا أَنَّهُ جَسَدُهُ... أَنْفُهُ... حاجباهُ... أُذناهُ... عنُقُهُ... كتفاه... كُلُّ شيءٍ فيهِ عادَ إلَّا نظرته، في وجههِ عينانِ غريبتانِ لم تخجلا أَنْ تُفَصِّدا قبلَ أيّةِ كلمةٍ تَجَاعيدها... وترهُّلاتها... ونحولها... وتَقَصُّفَ شَعْرِهَا وجذورهِ غير المصبوغة، عَضَّتْ على شَفَتِها، من طعمِ الدّمِ أدركَتْ أنّها خارجَ أسوارِ الحلم، خطَا نحوها بهدوءٍ، قارَبَها، توقَّف، تطايرتْ أنفاسها تحتْ وطأةِ مقلتيه، تلفَّتَتْ حولها، تساقطَ الدَّمعُ من شعرها نصفِ المضفورِ، بدتِ المسافةُ نحو خزانة الفساتينِ شاسعةً جدَّاً، فكّرَتْ بالهرَب، وشوشَها:

«نحنُ ضحايا الزَّمن»

تنهَّدَ، ابتلعَ ريقاً صعباً، جهدَ كيما يقولُ كلاماً مفيداً، استدرك:

«الظروفُ هي كلُّ شيءٍ صدّقيني، هنالكَ دوماً أسبابٌ قاهرةٌ»

أحسَّتْ بمرارةٍ في حلقها، بخيبةٍ غريبةٍ، لاحظَ، فربَّتَ على كَتِفها الضَّئيلة، أَصْغَتْ إلى أصابعهِ الثّقيلات، شعرتْ بأنَّ كلَّ ما

عليهِ فعلهُ هو أنْ يلزمَ الصَّمتَ، استنشقتْ ياقةَ معطفهِ العالية، هفَّتْ منها أنفاسهُ، لفحتْ وجنتيها الباردتين، ارتَعَدَتْ، لَمَسَتْها، جَفلَتْ، هَمَسَ في مشقّةٍ:

«اشتقتُ... إليكِ»

مثلما حَدَثَ في الوهمِ ألفَ مرَّةٍ، اندلَعَتِ الكلمتانِ في صدرها، حاوَلَتْ أنْ تردَّ، لكنَّ كلَّ ذخيرتها من الأحرفِ كانتْ قد احترَقَتْ، اصطنعَ بسمةً قصيرةً، فتَحَ ذراعيْهِ كَما تَمَنَّتْ كلَّ حينٍ، همسَ برجاءٍ:

«لديَّ أعذاري.... سامحيني»

وفي الحالِ تجمَّدَتْ، رَكَّزَتْ في عينيه الخاويتين طويلاً، وفي النّبرةِ الباردةِ طويلاً جدًّا، فكّرَتْ في الوشائجِ التي كانتْ تنمو بينهما كلّما تقلَّصَتِ المسافَةُ بينَ لهفتيهما، فتَّشَتْ عن شيءٍ رهيفٍ كان ينبتُ في الهواءِ بينهما إلّا أنّها سرعان ما استسلمت، ذابت ملامحها بلا مقدّماتٍ، توارَدَتْ إلى ذهنها كلُّ الأيّامِ المعقَّدة التي كانَ ينبغي لها أن تعيشها ببساطةٍ، بَهَتَ لونها، وانطفأَتْ لمعةُ عينيها من دونَ سبَبٍ واضحٍ، دمعتْ، حرَّكَتْ شفتيها بلا كلماتٍ،

وتساقَطَتْ منها الرَّعشَاتُ... والانتظاراتُ... والميتاتُّ الكثيرةُ التي سبقَ أن اختبرتها، تحرَّكَتْ بِمَشَقَّةٍ، خلَّفَتْ ذراعيهْ وراءها، وببطءٍ فَتَحَت البابَ من جديدٍ، خَفَقَتْ أصابِعُها فَوقَ المِقْبَض، انقَبَضَ قَلْبُهَا، لكنَّها همْهَمَتْ وهيَ تَزفُرُ النَّفَسَ الذي شَهَقَتْهُ بجهدٍ:

«أُخْرجْ».

بعدها على الفور دخلت، نشّفَتْ عينيها، كَتَبَتْ لافتةً بخطٍّ راجفٍ، وفي الصَّباحِ علَّقتْها على البابِ:

«فساتين للبيع».

كائناتُ القاع

«أنتَ قذر»

هذا ما غمغمَ بهِ صاحبُ الدُّكانِ وقدْ تولَّتْهُ الحيرة، كانَ يراقبني وأنا أحملُ الخزانةَ على ظهري، أتمَهَّل، أُسْرِعُ، ألهثُ، أتعرَّقُ، وأهبطُ بها درجات القبو، أَدخلتُها بحنوٍّ من البابِ العتيقِ وكأنّي لمْ أسمَعْ، كانَ شعوراً غريباً ذلكَ الذي انتابني فجأةً، لم أخجل، لم أرتبك، لم يتملَّكني الزَّعلُ أو الذّعرُ ولا حتّى المهانة، بدوتُ وهلةً في أحسنِ حالٍ، فأنْ تتفهَّمَ أنّكَ وضيعٌ يعني أنَّكَ غيرُ مضطرٍّ إلى بذلِ أيِّ جهدٍ لتحسينِ نفسكَ أو إقناعِ أحدهم بأنَّكَ لستَ كذلك، الإحساسُ المتولِّدُ عن يقينكَ بالوضاعة مريحٌ جدّاً وقادرٌ على إيقافِ عجلاتِ حياتكَ بأكملها لصالحِ السَّكينة واللا اكتراث، بعضٌ ممَّنْ شاهدوني شتموني لأنّي لصٌّ كما اعتقدوا بعضهم شتموني لينفوا عن أنفسهم شبهةَ اللّصوصيّة، انهمرَتِ الشتائمُ المضادّة في داخلي، تراكمَتْ، وأطفَأتْ وهجَ الحمأةِ المتأجِّجةِ من الحبِّ والخيرِ والجمال، تلكَ التي تحدَّث عنها دوستويفسكي في روايته «مذكّرات من تحت الأرض»، أحبَبتُ ذلكَ الرّجل لأنَّهُ أجادَ توصيفي، وقرنٌ من الزَّمنِ يفصلُ ما

بيننا، أراهُ كلَّما ولجتُ منزلي، بكلِّ ما يوحي بهِ من هيبةٍ و ثقلٍ، أجدُهُ راقداً في زاويةٍ ما بلحيةٍ طويلةٍ ووجهٍ متعدِّدِ الجوانبِ، كانتْ كآبتهُ معديةً، ولكنَّ رؤاهُ عموماً سديدة، أوَّلَ الأمرِ كنتُ أتعاملُ مع وجودهِ المجازيِّ كمزيجٍ من الهلوسات والخيالاتِ والحاجةِ الملحَّةِ إلى أحدٍ... أيّ أحدٍ، بعدَ ذلكَ صرتُ أسكبُ الشّايَ في قدحهِ، أُناولهُ التِّينَ المجَفَّف، أحكُّ لهُ ظهرهُ، أُدلِّكُ ما بينَ كتفيهِ، كنتُ أتبادلُ معهُ الأحاديثَ والخواطرَ كأيِّ ضيفٍ حميميٍّ، لكنَّ الأمرَ لمْ يقفْ عندَ ذلكَ الحدّ فقدْ بتُّ مثلهُ شاحباً وانطوائيَّاً، صرتُ أُقلِّدهُ ولربّما باتَ من يتحكَّمُ بأفعالي خفيةً، لقدْ وصلَ بي الأمرُ مرَّةً إلى أنْ تجاوزتُ معهُ حدودَ التَّهذيب:

«اسمعني جيِّداً يا فيودور مهمَّتكَ الوحيدةُ تنويري فقط وليسَ تغييري، أنا لستُ شخصيَّةً منْ شخصيّاتِ قصصك... فهمت، أُدركُ جيّداً أنّكَ تسعى لذلك، يغريكَ ضغطي في تجاربكَ اللغويّةِ والنَّفسيّةِ والفكريّةِ أيضاً، بتُّ أخافُ أنْ أستيقظَ وأجدني غيري، فالرِّوائيُّونَ عادةً ما يوقظونَ النَّقمةَ والغضب في أعماقِ قُرَّائهم، يريدونَ وضعَ الجميعِ في الكتب، لكنّني راضٍ عن حياتي يا أخي وأعي برحابةِ صدرٍ أنَّ العالمَ يحتاجُ إلى التّافهينَ أمثالي بقدرِ حاجتهِ إلى العظماءِ أمثالك».

* * *

أقفلتُ البابَ خلفي، وعدتُ إلى الخزنة، فقد كانتْ شامخةً وسطَ بحرٍ من الكُتبِ والمجلَّدات.

في بيتٍ عفنٍ رطبٍ معتمٍ كبيتي، خاوٍ إلّا من مغسلةٍ صدئةٍ يلتصقُ ذوبُ الصَّابونِ بحوافِّها، ومشجبٍ لتعليقِ الثِّيابِ والأواني المعدنيّةِ، وسريرٍ ماتت عليهِ أمّي كمَداً، تشَكِّلُ الكتبُ ببساطةٍ بقيَّةَ الأثاث، بعضها أمسَتْ مقعداً، وبعضها حاملاً لمرآةٍ مكسورةٍ ومنشفةٍ وأدواتِ حلاقةٍ، بعضها وسائدُ وبعضها «طربيزة» وطيئةٌ ترفعُ قليلاً صحنَ السَّجائر، الكتبُ لدى فقيرٍ مثلي لا تؤثِّثُ المكانَ وحسب وإنَّما تكسوني من الدّاخل، تهندسُ بذكاءٍ كلَّ فراغاتي الخفيَّةُ، تشغلها بمادَّتها وتوحي لي بالامتلاء، تمُدُّني بصورٍ جديدةٍ فأعيشُ فيها وأحتالُ بفضلها على فداحةِ الأيَّامِ المتماثلة.

تملَّيتها طويلاً، عاينتُ برفقٍ «الفورمايكا» العنبريّةَ اللّون، ساعةٌ وأنا جامدٌ قبالتها، أشمُّها، أستنشقُ منها رائحةَ أُمنيةٍ ميتةٍ بإيجادِ مأوى لكتبي اليتيمة، كانَ لخشبِها المصقولِ جَسَدُ أُنثى عارية، تلمَّسْتها، حفظَتْ أصابعي شكلها، لاحَقَتْ بنهمٍ تضاريسها، نعومةَ الأسطحِ، وخشونةَ البُقَعِ المقشورةِ، وحِدَّةَ الحوافِّ، قلَّبْتُ في رأسي طرائقَ تحويلها من خزانةِ ثيابٍ عاديّةٍ إلى مكتبةٍ، وحينما سارعتُ إلى فتحها كيما أقيسُ

اتّساعها لمْ أنجح، كانتْ مقفَلةً بإحكامٍ، فكَّرتُ في وسيلةٍ لفتحها، لكنَّ سؤالاً لمعَ في رأسي أضاءني كما لو كانَ نافورةً من الأمل:

«تُرى ما هو الشَّيءُ الثَّمينُ بداخلها والذي دفعَ صاحبها لقفلها؟؟؟».

* * *

لم أكنْ يوماً لصَّاً ولا جباناً ولا مختلَّاً، لكنَّ رفاقي العساكرَ يقسمونَ على ذلكَ بلا أدنى شعورٍ بالذَّنب، يطحنونَ ثقتي بشرفي، يُخلِّفونَ جَرِيشَهُ تحتَ نعالهم في كُلِّ جلسةٍ تُدَارُ للتَّنَدُّرِ عليَّ، قالَ جنديٌّ وهو يتمطَّى تحت السَّاتر:

«أنْتَ تتعَفَّنُ في بَدْلَتِكَ الخاكيَّة»

صَوَّبَ نحوي نظرةً قاتلةً وسَألَ:

«إذا حوصرتَ وحدكَ يوماً فبماذا ستقتلُ عدوَّكَ... بقصيدةٍ؟ بقصَّةٍ؟ بكتاب؟، أتَظُنُّ أنَّ القائدَ لمْ ينتبِه لكونكَ تُمثِّل وأنَّكَ لَمْ تُطْلِق رصاصةً واحدةً منذُ بدايةِ الحرب؟ أُخَمِّنُ أنّكَ ستموتُ بنيرانٍ صديقةٍ»

تضاءَلتُ أمَامَهُ، ابتلعتني قعقعةُ المخاوفِ والقلق، وتلاشيتُ في سروالي الذي أصبحَ فضفاضاً فجأةً، حَدَثَ ذَلكَ مُنذُ شهرٍ، انتصَرنا

وطَهَّرنا الموقع من المسلّحين تماماً، هَبَّ الرِّفاقُ يحتفلونَ ويُهلِّلونَ، ثُمَّ شاهَدتُ بعضَهُم يتسابقونَ، يقتحمونَ المنازلَ الخاوية، يتشاتمون، يتعاركون، ينهبونَ محتوياتها... الأثاث... الأبواب... النَّوافذ... البلاط... مصابيح الكهرباء... حنفيّات المياه... ألعاب الأطفال... الأحذية... المؤونة... وكلَّ شيءٍ قابلٍ للانتزاعِ، يدكُّون الغنائمَ في سيَّاراتٍ ويبيعونها بأبخسِ الأثمان، وعندَ كلِّ احتفالٍ بالغنائم كنتُ أبتعد مع المبتعدين، أُنَدِّدُ مع المنَدِّدينَ، أضمُّ قبضتي وأُصلّي، أتوارى في ابتهالاتي، وأستحضرُ وجهَ أبي الشَّديدِ التديُّنِ الذي يتراءى لي متلبِّساً بوجهِ صديقي المريب ديستويفسكي، لكنَّ رغبةً خسيسةً ساقتني تلكَ الظهيرة مع ثُلَّةٍ مِنَ مُتَقاسمي المكاسب، شاهدتهم يسطونَ على قصرٍ فارهٍ فلا يبقونَ منهُ ذرَّةً، في غرفةٍ مهملةٍ في حديقتهِ الخلفيّة وجدتُ متاعاً واحداً فحسبُ، كانَ قابلاً للتَّحويلِ إلى الشَّيءِ الذي تمنَّيتهُ طويلاً في طفولتي، أضحكني الخاطرُ، تفكَّرتُ قليلاً، ثُمَّ انقبَضَ وجهي بجدِّيّةٍ، لمْ أحسبها كثيراً حينما حملتُ على ظهري الخزانةَ المقفلةَ، بشقِّ النّفسِ دفعتُها في سيَّارَةِ التّحميل، حشرتها بينَ كنوزِ الغانمين، استكَنتُ لحظةً، التفَتُّ للخلفِ، تملَّيتُ الرِّفاقَ المُنْتَشينَ بالنَّصرِ، لمْ أشعرْ لحظَتَها بأيِّ ازدراءٍ نحوهم، لم يشعروا

بالسِّوطِ الخفِيِّ يلسعُ جلدي في كلِّ موضعٍ، شاهدوني فحسبُ أمسحُ عن وجهي دموعاً لم أذرفها.

* * *

جلبتُ مفكَّاً وبعضاً من مفاتيحِ الرَّبط وفي نيّتي انتزاع القفل، لكن لم أكد أدنو حتى تناهتْ إلى مسمعي أصواتٌ غريبةٌ... حشرجةٌ... نهنهةٌ...، تسارَعَتْ دقَّاتُ قلبي، تراجَعْتُ بهلعٍ، تساقطَتْ أعمدةُ الكتبِ من خلفي، واختلطَتِ الجلبةُ بالأدعيةِ و البسملةِ والتَّعوذِ من الجانِ والشَّياطين، لمْ يخطُرْ ليَ البتّة أنَّ فيها أحداً ما، إذ سبقَ أن حملتها... قلَّبتها... دفعتها، بدتْ لي آنذاكَ خاويةً تماماً، امتقعَ لوني، ونزَّ العرقُ تباعاً من جسدي كُلِّه، خُيِّلَ إليَّ أنَّ شبحَ مالكها مختبئٌ داخلها، وقدْ رافقني انتقاماً منّي، شهقتُ الكلمتينِ مختنقاً:

«لستُ وغداً»

خرجَ دوستويفسكي من «لاأخوة كارامازوف»، دمدمَ متثائباً:

- «أيُّ إنسانٍ يمكنُ أنْ يكونَ وغداً، ولا شكَّ في أنّنا جميعاً أوغادٌ بدرجاتٍ متفاوتةٍ»

- كفَّ عن اجترارِ أفكارك... هو لا يعلمُ أنّي لمْ أسرقْ من قبل.

- ولكنَّكَ سرقت.

- هو لا يُقَدِّرُ أنَّني أنقذتها... وأيُّ مصيرٍ ينتظرُ لها الحرق؟ التحطُّم؟ أليستْ السَّرقةُ أكثر رأفةً؟

- من «هو»؟

- ...

- من؟

- مالكها... ربّما شبحه... ربّما...

- يا للسُّخفِ... أنتَ جادّ!!؟

- وماذا تكونُ أنتَ أيُّها الميّتُ منذُ مئةِ عامٍ؟ أعتقدُ أنَّ شعوراً بالإثمِ وراءَ ما أسمعه ليسَ إلَّا... باستطاعتك الذّهاب... اذهب.

- «لا شيء أجمل من الاعتراف بالذَّنب... راحةٌ بلا حدود».

- يكفي... يكفي... قلتُ لكَ اذهبْ.

لم أنم ليلتها، الأصواتُ لمْ تهدأ... حفيفُ ثيابٍ... اصطكاكُ أسنانٍ، شيءٌ ما أخَذَ يتقَلَّبُ فيَّ باضطرابٍ، صارعتُ فيهِ مخاوفي وانتصرت، لم أنتظر حتَّى الصَّباح، قمتُ أهوي بالمطرقةِ على القفلِ

العنيدِ، صَلْصَلَ تحتَ ضرباتي، تهتَّكَ، انخلعَ، فتحتُ الدرفَتَيْن الطَّويلتينْ، ووقفتُ بينهما مشدوهاً.

* * *

«إجازتكَ أربعٌ وعشرونَ ساعةً» قالَها قائدُ الكتيبةِ كبصقةٍ، رفرفتِ الأُمنياتُ عندئذٍ على جانبيَّ، ولكنَّهُ استدركَ بنبرةٍ مدوِّيَةٍ: **«عُدْ رَجُلاً»**، فادْلَهَمَّ الظَّلامُ في سروري القصير، تذكَّرتُ كلماتِ زميلي، مادَتْ بيَ الأرضُ، ثمَّ أسرعتُ بالتَّحيّةِ العسكريَّةِ، خبطْتُ قدمي بالأرضِ بما أُوتيتُ من غلٍّ، طَفَرَتِ الحَصَيَاتُ النَّاعماتُ من تحتها، تمَسَّكَتْ أصابعُ رجلي ببعضها البعض، انسَحَبْتُ إلى الخلفِ، هربتُ من نظرَتِهِ الرَّهيبةِ، وهرولتُ كالعاشقِ المُدَلَّهِ نحو الخزانةِ المتَظِرةِ.

* * *

صبيحةَ اليوم التَّالي أفاقَ الرِّوائيُّ الفذُّ مبكِّراً كعادته، فركَ عينيهِ جيّداً، حدَّقَ إليَّ غيرَ مُصَدِّقٍ، همهمَ:

- استيقَظْتَ قبلي؟

- لم أَنَمْ

استدارَ نحوَ الخزانةِ، ثمَّ هتَفَ:

- أحسنت... فتحتها أخيراً!! ورأيتَ الشَّبَحَ فيها؟

- لا تسخر

- ماذا وجدتَ فيها؟

- قميصاً.

- قميص!!!؟؟؟؟

قميصٌ واحدٌ فحسبُ... معلَّقٌ بعنايةٍ... لم يسقطْ رغمَ رحلةِ الخزانةِ الرّاعبةِ... ورديّ اللَّون يبدو أنَّهُ لمراهقٍ... مُلَطَّخٌ ببقعتيْ عرقٍ تحتَ الإبطَيْن، ملوثٌ ببقعةٍ حمراء ربّما صلصةُ بندورة وربَّما أحمرُ شفاهٍ، هنالكَ علامةٌ لماركةٍ معروفةٍ، زرٌّ مفقودٌ في أحدِ الكُمَّيْن، وشقٌّ واهٍ في قماشِ الكوعِ، على الياقةِ أثرٌ طفيفٌ لعطرٍ قويٍّ، وفي جيبهِ ورقةٌ نقديّةٌ مطويّةٌ بعنايةٍ ومنديلٌ ورقيٌّ مستعملٌ.

زَحَفَتْ ابتسامةٌ على وجههِ العابس، فبدا أكثرَ غرابةً، ربَّتَ على كتفي، ووشوشني بصوتٍ مهيبٍ:

- أمضَيْتَ ليلتَكَ إذنْ في حياكةِ ماضٍ يليقُ بهِ، تخيَّلتَ مثلاً أنَّ صاحبهُ الفقيرَ لا يملكُ غيرهُ ولربَّما منحهُ إيّاهُ رجلٌ ميسورٌ بعدَ أن ضاقَ عليهِ، لربّما خطَرَ لكَ أنَّهُ لابنهِ المقتول في الحربِ وقد أحكمَ إغلاقَ البابِ عليهِ ليبقى حينَ يموتُ الجميع، واثقٌ بأنّكَ فكّرتَ في البقعةِ الحمراء، ماذا لو كانتْ

قبلةً محفوظةً منذُ سنينَ، ماذا لو كانتْ أثرَ المعكرونة التي أعدَّتها الوالدةُ قبلَ موتها، ماذا لو ...

سقَطَتِ السيجارةُ المُطْفَأةُ من فمي، أفزعني أنَّ كلَّ تَصَوُّرٍ انتابهُ كانَ بالضَّبطِ ما فكَّرتُ فيه، عقَّبْتُ مقاطعاً إيَّاهُ:

- أجزمُ أحياناً بأحدِ أمرينْ فإمّا أنّكَ جنّيٌّ وإمّا أنّني مجنونٌ بالفعلِ.

مسَّدَ لحيتهُ، وأردفَ غيرَ مهتمٍّ لما تفوَّهتُ بهِ:

- أعترفُ أنّني حينما دخلتُ حياتكَ أوَّلَ مرَّةٍ ظنَنْتُكَ مثقَّفاً يحملُ همَّاً وجوديَّاً، راقَتْ لي صحبتكُ في حيِّزٍ تتراكمُ الكتبُ فيهِ بشكلٍ يصعبُ معهُ إيجادُ موطىءٍ لقدمٍ، لم أتأخَّر حتّى فهمتُ أنَّكَ تشتري المستعملَ منها لأنَّهُ رخيصٌ ومسلٍّ ومؤنسٌ في وحدتكَ المديدة، ولكنَّني بقيتُ معكَ بملءِ إرادتي، أتعلمُ لماذا؟ لأنَّكَ كائنٌ معقَّدٌ بقدرِ ما تخالُ أنَّكَ بسيطٌ، جنديٌّ أربعينيٌّ طيِّبٌ... ضعيفُ البنية... يحرصُ على إفراغِ بندقيَّتهِ قبلَ كلِّ اشتباكٍ... مسالمٌ... فقيرٌ... مقهورٌ... مسحوقٌ ولكن متسامحٌ حتّى النهاية... متساهلٌ إلى حدِّ الألم... لنْ يفكِّرَ في الزّواجِ أو في إنجابِ الأولاد... لمْ تُقْنِعْهُ

رواياتي بالتَّمَرُّد... يستيقظُ كلَّ صباحٍ ليُتِمَّ دورَةَ الموتِ اليوميّةَ... ينامُ كلَّ ليلةٍ ليحلمَ بالحبّ، أراكَ وأنتَ ترسمُ على الحيطانِ امرأةً كلَّ يوم، تعشقُ واحدةً كلَّ يوم، وعلى الرغم من الحرمانِ والوجعِ اللّامنتهي تضحكُ يا عزيزي ممتنّاً للحياةِ، هل تتصوَّر إلى أيِّ مدىً كنتُ أراكَ جميلاً !!

تطلَّعَ إلى القميصِ المضطَجِعِ على فَخْذَيَّ مستطرداً:

- أنتَ لم تُسِئ لمن سرقتهُ بتاتاً فهو لنْ يذكرَ في الحربِ خزانةً ولا رداءً ولا حتّى قصراً، هذه السَّرقةُ الصَّغيرةُ سرقتْ مزاحك... مزاجكَ الرَّائق... عقلكَ أيضاً... سرقَتْكَ بأكملك.

- تقصدْ سَرَقَتْ منكَ مهرّجك... أنموذَجك الواقعيّ... ألمْ تخبرني بأنَّ البؤسَ رذيلةٌ؟ و بأنَّ البائسَ لا يمكنُهُ الاحتفاظُ بنبل عواطفه؟ أنا بائسٌ يا رجل... بائس... رغمَ استسلامي وقناعتي وضحكتي اللّعينة، علامَ تحاسبُ الغريقَ إذا ما تعلَّقَ بوسيلةِ نجاتهِ؟ هذهِ المكتبة أو الخزانة كما تراها منحتني بهجةً أكبرَ من أنْ توصف... أنْ أحقِّقَ حلماً ما قبلَ أنْ أموتَ مهما كانَ سخيفاً أو تافهاً.

- بهجةً!!!

- ذلكَ ما اعتقَدْتُهُ.

- والآن؟

- أفكِّرُ في إعادتها

- إلى أرضِ المعركة؟

- إلى حيثُ لا أتعذَّبُ بوجودها

- هوّنْ عليكَ، لا يُقْلِقَنَّكَ وجودها، ولا تخفْ منها، خفْ من نفسك.

- لا تَظُنَّ أنّي خائفٌ من أنْ أنتهي إلى السّجن... أنا مولودٌ بقضبانٍ يا فيودور... إنّها جزءٌ من تكويني الروحيّ وأستطيعُ الذّهابَ بعيداً إذ أُخبركُ أنَّ لدينا نحنُ جماهيرَ القاعِ «صبغيّاتِ قضبانٍ» نتناقلها بالوراثة ولربّما يتمكَّنُ العلماءُ يوماً من فَصْلِهَا بوضوحٍ تحتَ المجهرِ الضوئيِّ، ولا تحسبنَّ في الوقتِ عينهِ أنِّي أُفكِّرُ في حسابِ ما بعدَ الموتِ فأنا واثقٌ بأنَّ إلهاً قويّاً أوجَدَني على ذرَّةِ غبارٍ كونيَّةٍ سيكونُ أكثرَ رأفةً بضعفي برغمِ ما هَدَّدَ بهِ الأنبياءُ. الأمرُ يا رفيقي يتعلَّقُ بالقلب، يؤرقني... يتعبني... أودُّ لو أقتلعهُ أحياناً كثيرةً، تصوَّرْ أنْ تحملَ دماركَ الذَّاتيَّ بينَ أضلعكَ!!!،

أحسبُ أنَّ الجنسَ البشريَّ في رحلةِ تطوِّرهِ سيعاني ضموراً في تلكَ العضلة.

* * *

في الخندَقِ العميقِ قهقهَ زميلي حتّى التَّعب، أشارَ إلى القميصِ المتدِّلي من تحتِ السُّترةِ الخاكيَّةِ، دمدمَ محاولاً أنْ يتماسك: **«هذا اللَّونُ النسائيُّ سيرهبُ الأعداء»**، تفَحَّصْتُ ذخيرتي متجاهلاً نظراتهِ، دوَّتْ كلماتُ القائدِ يطلبُ منّا التَّقدم، زميلي الذي شاهدني في المقدِّمة أثبُ بشراسةٍ... أُناورُ... وأطلقُ النَّارَ، كانَ قدْ ابتلعَ صوتهُ.

شهرانِ وأنا عالقٌ في الزَّمن ليسَ في وسعيَ العودة لما قبل القميص ولا في مقدوري التّخلّصُ منهُ منتقلاً لما بعده، رنَّ بعدهما هاتفي الذي لا يرنُّ عادةً، ردَّدْتُ مهتاجاً خلفَ الصَّوتِ البعيدِ: **«بيتي يحترق!!!!»**

* * *

«نعم أنا أحرقته»

هَتَفَ فيودور وهو جالسٌ وسطَ الرَّماد يدَخِّنُ سيجارةً مطفأةً، طافَتْ عيناي في أنحاءِ المكانِ، لم يبقَ هنالكَ كتبٌ ولا خزانةٌ، لم يعد هنالكَ بيتٌ أو ذاكرةٌ، سألتُ منهاراً:

- لماذا؟

- لأنقذك

- ألم تجد ألعنَ من هذهِ الوسيلة يا... يا صديقي؟

قامَ بتثاقلٍ، اتّجهَ نحوَ الشُّباكِ المغلق، ألصقَ وجههُ بالزُّجاجِ المتَّسخ، أجابَ بلهجةٍ حاسمةٍ ومن دون أنْ يلتفت:

- إنَّهُ تدريبٌ رائعٌ على الفَقْدِ

- إذنْ لا مناصَ من الفقد؟

- مؤكَّد

- أتعرفْ خلعتُ القميصَ في الطَّريقِ ورميتهُ في القمامة، وأعتَقِدُ أنَّ دوركَ قد حانَ أيضاً لأُطَهِّرَ نفسي تماماً.

طعنتُهُ من الخلفِ بسكّينِ الفاكهة، تهاوى، تصاعدَ دخانٌ كثيفٌ من جثَّتِهِ الخفيفة، الجثَّةُ التي نفدَتْ سريعاً خلَّفَتْ وراءها بقعةً ساخنةً من الحبرِ، كمَّمتُ فمَ الحزنِ وأصغيتُ إلى ترَّهاتيَ المُريحة:

«لم أشعرْ بأنّي عاقلٌ هكذا من قبل»

«كانَ حملاً ثقيلاً على كاهلي»

«أنا حرٌّ الآن... حرّ»

فجأةً طُرِقَ البابُ بقوَّةٍ، فكَّرتُ في الشُرطة، فكَّرْتُ في الوهم، فردتُ بصري على نصلِ السّكينِ النَّظيفِ، وضحكتُ طويلاً،

أمسَتِ الطَّرقاتُ عنيفةً... مُلِحَّةً... متواصلةً، أحدُهم يَدُقُّ ملهوفاً على البابِ الذي لا يُدَقُّ...

خطوتُ نحوهُ بتوتُّرٍ، فتَحْتُ لهُ، ارتَعشْتُ، تيبَّسْتُ، كانَ القميصُ مستوياً قُبالتي بنظراتٍ مستغيثةٍ وعينينِ مُحْمَرَّتَينِ، «صارَ لكَ وجه» دارَتِ الأفكارُ برأسي كالحمائمِ الثَّمِلةِ، خَطَرَ لي أنْ أُشَغِّلَ «كاميرا» الجوَّال، وألتَقطَ صورةً تنفي جنوني، خطر لي أنْ أحتضنهُ لأُهَدِّئَ صَدْرَهُ المُنْتَفِضَ أو زفراتِهِ الحرَّى، لكنَّهُ لَمْ يُمْهِلني... ارتخى كتِمْثالٍ فجأةً، اختَلَّتْ وقفَتُهُ، اختَلَجَ، تهاوى، ثمَّ انبطَحَ على بطنه، وهنالكَ على ظهرِهِ المُقَلَّم بانَتْ بُقْعةُ دَمٍ كبيرةٌ... ساخنةٌ... طازجةٌ، تملَّيتها طويلاً، طويلاً جدَّاً، سَرَتْ رجفةٌ في روحي، أغلَقْتُ البابَ، أحكمتُ إقفاله بالمزلاجِ، وبهدوءٍ شديدٍ تهاويتُ خلفه.

أجراس لا صوتَ لها.

سَبْعٌ وعُشْرونَ دَقِيقَةً فَقَط... هيَ كُلُّ مَا كَلَّفَ الحَرْبَ لِمَحْوِ المَكَانِ، وتَحويله إلى بُقْعَةٍ رَمَادِيَّةٍ تَخْتَلِجُ في عَيْنَيْ دِمَشْقَ كُلَّمَا التُقِطَتْ لها صورةٌ فَضَائِيَّةٌ.

هَذَا الرُّكَامُ الأسْمَنْتِيُّ كَانَ في الأمْسِ بيوتاً حَارَّةً مَشْغُولَةً بتَأنٍّ وكأنْ بأصابعِ الإلهِ، قَرْميدٌ، نَارِنْجٌ، مَسَاكِبُ نَعْنَاعٍ، معرَّشاتُ

عنبٍ، فسْقِيَّاتٌ مائيَّةٌ، وياسمينٌ بلديٌّ يتَدَلَّى مِنْ شُرْفَةٍ لأُخْرى، يُوَزِّعُ الصُّبْحَ على مرايا الجميلاتِ، كُلُّ بيتٍ كانَ مسكناً للحَمَامِ وللفَرَاشِ وللقَنَادِيلِ التي لا تنطفئُ. جدارُ المدرسةِ الشَّرقيُّ كانَ الشَّيءَ الوحيدَ الذي صَمَدَ في وجهِ العاصفةِ، يقفُ الآنَ وكأَنَّهُ شاهدةٌ ضخمةٌ للمقبرة، قلبُ الحبِّ الذي رسمهُ بيتر في أعلاهُ والسَّهمُ الطَّويلُ ذو الرَّأسينِ كانا آخرَ ما يُلَخِّصُ ما حدَث.

* * *

«بيتر يُحبُّ خَولَة» تمدَّدَتْ هذهِ الجُملةُ، تخلَّقَتْ في ألفِ صيغةٍ وهيئةٍ، ودارَتْ كالفراشةِ المستخفيةِ على أفواهِ التلاميذِ، وصلتْ أخيراً إلى أُذنِ المديرِ، فاكتشَفَ بنباهتهِ أنَّ الفتى هو من أفسَدَ سورَ المدرسة، زأرَ الصَّوتُ في الباحةِ المفروشةِ باللَّعبِ والضّحكاتِ والأحاديثِ الطَّويلة:

«بيتر تعالَ إلى هنا»

لحظَةَ اقتربَ التّلميذُ المذهول سحبهُ خلفهُ من أُذنه، تعثَّرَ خلفهُ مراراً، شاهدَ الأولادَ يتهامسونَ ويتغامزونَ، ورأى خولة بعينيْ قلبهِ تبكي في مكانٍ ما، ربّما لمْ تعلمْ بعدُ بما حدثَ ولكنّها ستعرفُ حتّماً بحدسها التخاطريِّ، أدخلهُ الأُستاذُ في غرفةِ الإدارةِ، ولم يكدْ يغلقُ

الباب حتَّى استحالتْ كعادتها إلى مكتبِ تحقيقٍ، صراخٌ، وترهيبٌ، وصنوفٌ متباينةٌ من العقوباتِ تُراوحُ من رفعِ اليدينِ والوقوف على رجلٍ واحدةٍ مثلَ لقلقٍ مكسور القلب حتَّى تنفيذ تمرين «مشية البطّة» عدداً مُنْهِكَاً منَ المرَّات...

- ألستَ عريفَ الصَّف؟

- بلى يا أُستاذ

- ألستَ الأوَّلَ فيهِ

- بلى

- ووالدكَ رجلٌ محترمٌ أيضاً... قلّي ماذا دهاك؟

- ....

- يعني كيف...؟ لماذا...؟ بماذا رسَمْتَ على الجدار؟

- بالطّبشورة

- بطبشورةٍ عاديّةٍ!!... أنتَ تكذب.

- أنا لا أكذب

- إذنْ لماذا لم يتمكَّنْ زملاؤكَ من إزالتها بأيٍّ من وسائلِ التّنظيف.

- لا أعرف

- أنا أعرف... يبدو أنّكَ لم تكتب بالطَّبشورة... أنتَ حَفَرْتَ بها... من أينَ جلبتَ كلَّ تلكَ القوّة؟

- ....

لم يحتجْ الأولادُ إلى استراقِ السَّمعِ أو التَّلصّصِ، كانوا يصغونَ من باحتهم إلى المواعظِ المتتابعةِ حرفاً بحرفٍ ويتسمَّعونَ بانتباهٍ إلى الكلماتِ الخفيضةِ الحادَّةِ كنصلِ سكِّينٍ، أوكَلَ المديرُ قضيَّةَ الفتى للمرشدةِ النَّفسيّةِ، فاصطحبتهُ إلى مكتبها المريح، قدَّمتْ لهُ مغليَّ البابونج، وسألتْهُ في منتهى الرّقة:

- هل تحبُّها حقّاً يا بيتر؟

- نعم، وسأتزوَّجها حينما أكبر

- اعتدل في جلستك... ومن قالَ إنَّ في إمكانكَ تحديد أفعالكَ المستقبليّة منذُ الآن؟

- أنتِ يا آنسة؟

- أنا؟؟؟

- ألم تطلبي منّا مراراً أنْ نُحدِّدَ ماذا سندرسُ وماذا سنصبحُ؟ ألمْ تحثِّينا دوماً على وضعِ خطَّةٍ للغدِ؟

- يا إلهي... ألَسْتَ صغيراً على الحبِّ؟

- وما هو العمرُ المناسبُ للحبِّ يا آنسة؟

- أنا من أسألُ هنا يا شاطر... اتّفقنا؟

حدَّقَ إليها بنظرةٍ مضطربةٍ، وبنبرةٍ غاضبةٍ دمدمَ:

- حاضر

- وفقَ تصنيفاتِ الأممِ المتَّحدّة فإنَّ كلَّ من لم يبلغ الثَّامنة عشرة «طفل».

- لكنّي أعرفُ أنّني طفلٌ.

- حقّاً؟ وطفلٌ قليلُ الأدبِ أيضاً

لمعَتْ في خاطرها عبارةُ المدير:

«أنا لا أُجيدُ أكثرَ من توبيخه... أمَّا أنتِ يا آنسة ففي إمكانكِ إقناعهُ بودٍّ تبعاً لخبرتكِ الطَّويلة»

غيرَ أنَّ ما تفعلهُ غالباً ليسَ أكثرَ من التَّوبيخُ بلطفٍ، إنّها تكملُ ما درجَتْ عليهِ المدارسُ الكلاسيكيّة منذُ نشأتها «برمجةُ عقول الطُّلاب» تسويتها... تسطيحها... تعبيدها... مسح كلِّ التضاريس المهيَّأة لتصبحَ يوماً «الفروقات»، وإغلاق كلّ نافذةٍ لا تفتحُ على

ضياءِ المنهاجِ التَّعليميّ، على الأدمغةِ الغضَّةِ أنْ تُفَكِّرَ بالآليّاتِ ذاتها، أنْ تتّبعَ الأساليب والتّقنيّاتِ الموحّدة، أنْ تلتزمَ بجداول التّصحيح المدرسيّة «خيرٌ/ شرٌّ »... «صحيح / خاطئ»...» ممكن / مستحيل»، بل إنَّ المدارسُ التي تخصِّصُ إلى جوارِ الرِّياضيّاتِ والكيمياء حصصاً في الدِّين لا تتوانى عن تلقينِ الأولادِ المتلهِّفِينَ لاكتشافِ الحياة أساسيّات الـ «حلال / حرام» أيضاً.

بعدَ نقاشاتٍ عقيمةٍ ووعودٍ تحتَ الضَّغطِ، خرجَ الفتى منكسراً... مطأطِىء الرأس، توجَّهَ نحوَ الحمَّامّات بأنفاسٍ متسارعةٍ، كانت خاويةً تماماً، فالتَّلاميذُ أمسوا في صفوفهم، نشَّفَ بكمّهِ عينيهِ الغائمتينِ غيرَ أنَّ نقاطَ القهرِ واصَلَتِ انهمارها، كانَ يتحتَّمُ عليهِ أنْ يصطَحِبَ وليَّ أمرهِ في الغد وأن ينتقلَ من دونَ رجعةٍ من شعبةِ صديقتهِ الغالية، وقفَ مطوَّلاً قبالةَ شُبَّاكٍ صغيرٍ يطلُّ على الحديقةِ المجاورةِ، خرَجَتْ سحابةُ الزَّقزقةِ من عصافيرَ متحاضنةٍ على الأغصانِ المهتزَّة، كانتْ تنفضُ أجنحتها المبتلَّة وكأنَّها تتراشقُ بما علقَ من ماءٍ فيها، فتتلامعُ ريشاتها بشدَّةٍ تحتَ الشَّمس، أمّا الحمامةُ الوحيدةُ فوقَ غصنٍ عالٍ فقد راحتْ تتطلَّعُ إليهِ وكأنَّها تعرفهُ، جَزَلَتْ بنظرةٍ مستكشفةٍ، تذكَّرها جيِّداً فخولة ترمي لها في كلِّ يومٍ فتاتَ الخبزِ، سألتهُ مرَّةً:

«إخالُ أنَّ تلكَ الحمامةَ لا تستيقظُ باكراً كبقيّةِ الطُّيور... ترى هل يحلمُ الحمامُ يا بيتر؟»

بدا لهُ أنَّ كلَّ شيءٍ حولهُ قد أصبحَ ذاكرةً إضافيَّةً عن صديقتِهِ، عندما غاصَت الحمامةُ البيضاء في عشِّها كانَ قوسُ قزحٍ يتَّضحُ شيئاً فشيئاً فوقها كما لو أنَّ أحدهم قد بدأ التّوَّة برسمِهِ...

* * *

- لماذا لم تسمّني اسماً عربيّاً يا أبي؟

- ولكنِ اسمكَ حلوٌ... معناهُ جميلٌ وأنتَ تُحبُّهُ

بهذا السُّؤال بدأ بيتر بروايةِ ما لاقاهُ في المدرسة، لم يلحظْ كيفَ تبدَّلَ لونُ الوالد، لم ينتبه كيفَ انتفَضَ كمنْ لذعتهُ النَّار، ابتلعَ أبوهُ ريقاً مُرَّاً، جهدَ في أنْ يتبسَّمَ ويتفهَّمَ، لكنَّ دماغَهُ لمْ يذعن لأُذنيهِ، فابنهُ ليسَ هادئاً ومهذَّباً وحسبُ وإنَّما خجولٌ أيضاً على نحوٍ مبالغٍ فيهِ...

«كيفَ لهُ أنْ يُغْرَمَ بصديقتهِ؟»

«كيفَ لهُ أنْ يتحدَّثَ في الأمرِ بلا حرجٍ»

مخَرَتِ الأسئلةُ عُبَابَ شرودهِ الطَّويل، لكنْ لا وقتَ للإجاباتِ المطوّلة، لا وقتَ ليحاسبَ نفسهُ، أحسَّ أنَّ أشياءً كثيرةً قدْ تكوَّنتْ

وتغيَّرتْ وكبرتْ في ولدهِ الذي لمْ يُفارقْ ناظريهِ على الإطلاق، ثارتْ في رأسهِ خططٌ جديدةٌ وطرقٌ مختلفةٌ في التَّربية، طواها في صمتهِ الطّويل، ثمَّ دمدمَ:

- منذُ متى أحببتها يا بنيّ؟

- لا أذكر

- طيّبْ لماذا أحببتها ؟

- لا أعرف

- يعني هل هي جميلةٌ... ذكيّةٌ... لطيفةٌ؟

- نعم

- وكيفَ عرفتَ أنَّكَ تحبُّها

- إنَّها تمنحني قوىً خارقةً يا أبي كتلكَ الموجودة في الطَّبيعة... شيءٌ شبيهٌ بالجاذبيّةِ الأرضيّةِ والقوى المغناطيسيّة وقوَّةِ التَّوتّرِ السَّطحيِّ للماءِ، عندما تشجِّعني في درسِ الرِّياضة أُصبحُ أسرعَ في الجري وتصيرُ وثباتي أطوَلَ وأُحرزُ أهدافاً أكثر في كرةِ السَّلة، حينما تلوِّحُ لي في أيِّ امتحانٍ شفهيٍّ تخرجُ الكلماتُ من فمي بسلاسةٍ كالسِّحر، وحينَ تصفِّقُ لي يذوبُ خجلي من فوره وأتمكَّنُ من الغناءِ كالآخرين في درسِ الموسيقا .

- المشاعرُ يا حبيبي متغيّرة وخاصّةً في مثلِ عمركَ، مؤكَّدٌ أنّها تُعجبكَ بما تمتلكُ من لطفٍ وجمالٍ وذكاءٍ، فهذهِ الصِّفات تعجبُ كلَّ النّاس على أيَّةِ حالٍ، ولكنّها ليستْ حُبّاً بالتّأكيد... حينما تكبر ستفهمُ هذا، ستنضجُ مشاعركَ وأفكاركَ وسيكونُ في مقدوركَ عندها اتّخاذُ أيِّ قرارٍ.

- عندها سأتزوّجُ خولة

- اسمعني جيّداً... خولة تحديداً لا تناسبكَ الآن ولا حتّى بعدَ أنْ تكبر

- لماذا؟ لأنّها لا تذهبُ مثلي إلى الكنيسة؟ ولكنّها تحبُّ الله مثلي وتعبدهُ في مكانٍ آخر...

نقلَ الوالدُ ابنهُ إلى مدرسةٍ أُخرى، الصَّبيُّ الذي تغيَّرَ كثيراً، صارَ يسدُّ أُذنيهِ كلَّما قُرعَ جرسُ الكنيسة، أو جرسُ المدرسة، وفي يومٍ لمَّ بعضَ الثِّيابِ والحلوى في بقجةٍ صغيرةٍ وهرب، كانَ قد قَرَّر أنْ يبدأ بالثّيابِ والحلوى حياةً جديدةً لا أجراسَ فيها، ولكنْ صادَفَ أنْ التقاهُ أحدُ الأقرباءِ في محطّةِ القطارِ، ومن هناكَ جلبَهُ الوالدُ الملتاعُ بعدَ أنْ تعهَّدَ له بإعادَتِهِ إلى مدرسته.

* * *

«من المعروف أنَّ مصير الأرض إلى زوال»

هذا بالضَّبط ما تذكرهُ موسوعة المحتوى الإلكتروني الحرّ «ويكيبيديا» لمن يسألُ فيها عن نهايةِ شمسنا الأكيدة، لذلكَ فإنَّ العلماء الذينَ لا يستغربونَ اكتشافَ المزيدِ من الثُّقوبِ السَّوداءِ التي تبتلعُ الحياة بنهمٍ... مشغولونَ في هذهِ اللّحظاتِ بظهورِ ثقبٍ أبيض مماسٍّ للأرض.

القَمَرُ الصِناعِيُّ الأَمريكيّ «لاندسات Landsat» ومِنْ مَدَارِهِ الحَالي حَوْلَ كوكبنا يُظْهِرُ عَبْرَ صُوَرِهِ الْمُتَعَلْقَةِ بِدِرَاسَةِ التَّغَيُّرَاتِ المَنَاخيَّةِ انخِفَاضَاً رَهيباً بِدَرَجةِ الحرارةِ مَقَرُّهُ سَماءُ العَاصِمَةِ السُّورِيَّةِ، وبِمِجَسِّهِ الحَسَّاسِ للأشِعَّةَ الكَهْرومغناطيسيَّة يُواصِلُ المُرَاقَبة، ليُسَجِّلَ في هَذِهِ اللحظَة نشَاطاً إشعاعياً غير مسبوقٍ، فالكاميرا الحرارِيّةُ تُشيرُ الآنَ إلى ظُهُورِ نُقْطَةٍ بيضاء فُجَائيَّةٍ وسطَ حُطَامِ المَناطِقِ المنْكُوبَةِ...

* * *

حَديقةُ الأطفالِ قد صَمَدَتْ في وجهِ الحربِ، بَدَتْ بغتةً كنقطَةِ الوهمِ في واقِعٍ وسخٍ وقاتمٍ، في جنباتها ترفرفُ الحمائمُ البيضاءُ، وفرحٌ وفيرٌ شرعَ يفورُ من شجرةٍ سامقةٍ، لقد صَمَدَ

معها السُّورُ الذي كانَ يفصلها عن مدرسةٍ قريبةٍ، على السُّورِ قلبُ حبٍّ عميقٍ بسهمٍ ذي رأسينِ...

في الفسْحَةِ الخضراء تتالى وصولُهُمُ الأنيق، كأنَّما إلى حفلةٍ من حفلات القرن التَّاسع عشر، الحسناءُ ذاتُ الشَّعرِ القصير ألقتْ بنفسها في بحيرةِ البطِّ، تساءلتْ والماءُ يغمرُها حتّى ركبتيها:

«يا الله ازدادَ طولي أم انخفَضَ منسوبُ الماء؟ لكأنّي أليس في بلاد العجائب!»

الرَّجلُ الأنيقُ السَّائرُ فوقَ عمودِ التَّوازنِ، توقَّفَ عن لعقِ المثلَّجاتِ، عاينها، تساءلَ في تشكُّكٍ:

«ألستِ حنان؟»

- بلى؟ هل تعرفني؟

- أنا قصيّ هل فقدتِ الذَّاكرة؟ لا شكَّ أنَّكِ مدعوَّةٌ مثلي إلى حفلِ الزّفاف... ولكنْ كأنَّكِ كَبُرتِ قليلاً؟

تملَّتْ صورتها على صفحةِ الماءِ، وشهقَتْ:

- هذه أنا؟ نحنُ نكبرُ كثيراً، سريعاً، نتغيَّر، يا إلهي ما كُلُّ هذهِ العكاكيز حولنا؟

التحقَ بهما الآخرون، رجلٌ حافي القدمين يبني برجاً مِنَ العُلَبِ الفارغةِ، ثمَّ يشيخُ، يتجعَّدُ جلدُهُ، يتقوَّسُ ظهرُهُ، وينهارُ على العشبِ ليستريح، سيِّدَةٌ تبذرُ الحصى في الوحل، تمنحُ رقماً لكلِّ حصاةٍ، وتفطنُ فجأةً إلى أن تسألَ:

«هل رأى أحدكم العروسين؟»

رفعَ الرَّجلُ البدينُ منظاراً بلاستيكيّاً بلونٍ أحمر، ثَبَّتَ العدستين المنمنمتينِ أمامَ عينٍ واحدةٍ، احتَشَدَتِ الصَّيحاتُ في حلقهِ، لقد شاهدَ العروس تلهو مع شبحٍ عندَ أبعدِ أُرجوحةٍ، هتَفَ ممتعضاً:

«إنَّهما هناك»

تركَ الجميعُ درَّاجاتهم القديمة، وألعابهم، والكراتِ الطائرةِ، واندفعوا نحوهما بالرَّقصِ والأناشيدِ، كانتْ خولة تضحكُ كلَّما طارتْ وعادتْ، وكانَ بيتر يضحكُ كلَّما دفعَ أُرجوحتها، إلى أنْ أوقفها أخيراً، أنزلَ عنها عروسهُ، أرسلَ قُبلاً للرّفاقِ، ثمَّ حملها بينَ ذراعيهِ، بقوَّةٍ خارقةٍ تسَلَّقَ بها الشَّجرة، وهنالكَ غابا معاً، رفاقَهُ الذينَ شاهَدوهُ يختَفي معها في القشِّ الدَّافئِ لم يعلموا أنَّهما ناما سريعاً في العشِّ الوسيعِ...

وفجأةً استيقَظَتِ الحمامة، مدَّتْ رأسها بعناءٍ، نَقَّلَتْ نَظَرَها في كُلِّ الاتّجاهات، تفقَّدَتِ الصَّمْتَ المطبقَ، والملاهي الخاوية، الحفلةُ كانت في رأسها فحسب، فَرَدَتْ جَناحيها، نَفَضَتِ الدَّمَ النَّاشِفَ على ريشها، وحلَّقَتْ كعادتها فوقَ سورِ الحَديقة الوحيدِ الصَّامدِ وسْطَ خُرْدَةِ الذِّكْرَياتِ، حَامَتْ بِذُلٍّ، هَدَلَتْ مِنْ دونِ صوتٍ، الصَّوتُ الذي لَمْ يَخْرُجْ مِنْها كَانَ مُدَوِّيَاً... كَانَ كفيلاً بِشَرخِ الجِدَار.

ملاحظة:

المراقبونَ في ناسا يؤكِّدونَ أنَّ التَّقارير كَانَتْ خَطأ فادحاً غير مسبوقٍ سَبَّبَهُ طائرٌ غريبٌ يَجُولُ الآن في سَمَاءِ دمشق... ويحلم.

وحشُ الحنايا الرَّقيقة

كانَ يومُ دفنِهِمْ مُروِّعاً، جَمَعَ الوالدانِ أشلاءَهمْ من تحتِ أنقاضِ السَّماءِ، رمقا الغيم الذي لم يَتَدخّل بنظرةٍ خاطفةٍ، من ثمَّ انشغلا بفرزِ الأرجُلِ والأيدي، بعدِّ الأسنان، بشمِّ الأجسادِ، سادَ هدوءٌ مطبقٌ، وفي لمحِ البصرِ لمْ يعد هنالكَ سماء ولا سماءً مجازيّةً، فكلُّ أعلى أصبحَ فجأةً أسفل، صارَ العَيشُ محنةً والبقاءُ جرحاً يتَّسعُ معَ كلِّ نَفَسٍ جديدٍ، لقد أمسى العالمُ برمّتهِ هيكلٌ هشٌّ خالٍ من المعنى.

مات أولادهما مع كرة القدمِ في السَّهلِ القَريبِ، منذ ذلك الوقت هو يعاني حشرجةً في الصَّدرِ، يمشي في نومهِ، يهذرُ في صحوتهِ، ويبكي في الزَّوايا بلا انقطاعٍ، منذ ذلك الوقت وهي تدفن نفسها في خطوط الحمل البيضاء التي تُخَدِّدُ بطْنها المترهِّل، تنتحبُ هناكَ، تبتهلُ إلى الله من دونِ صوتٍ، ثمَّ تخرجُ من ندبةِ الجرحِ في أسفله، تهرعُ إلى الخزانة، تشمُّ أولادها المتدلّينَ منها ثوباً ثوباً، ثمّ تعبُّ أصواتهم من كوبٍ فخّاريّ، وتنامُ بالتَّناوبِ على مخدَّاتهم الباردة، علَّها تحضنُهُم في ركنٍ ما منَ المنامِ الوسيعِ، وفي

المنام كانتْ تتهدَّمُ مثلَ برجٍ لا نهاية لارتفاعه، تتكسَّر، لتجمَّعَ نفسها ثانيةً على أبوابِ الصَّحوةِ، كانتْ تطعمُ عنهمْ أسماكهم، تُكملُ عنهم أحلامهم، تغسلُ ملابسهمْ كلّ حينٍ، تُنَقِّلُ أحذيتَهم في أنحاء الدّار بحذرٍ وكأنّها من طابوق، ويوماً فآخر فقدتِ المرأةُ المقدرةَ على النُّطقِ وتبلَّدتْ تماماً مشاعرُ الرَّجل.

باتَ أحدهما لا ينامُ قبلَ الآخر، ولا يصحو إلّا ليتأكَّدَ مِنَ انتظامِ أنفاسهِ، كانَتْ أشهراً منْ خوفٍ وترقُّبٍ، كأنَّما حدسَ الواحد منهما في موتِ شريكهِ قبله، كأنَّما التَمَسَ منهُ وعداً بأنَّهُ لنْ ينتحرَ من دونِه، بعدَ حينٍ صارتِ المسافَةُ بين وسادتيهما تُقَاسُ بالكيلومتراتِ، أحدهما مع البنتِ في المدرسة، أحدهما مع الصَّبيِّ في المشفى... دائماً كلٌّ في مكانٍ، لا وقتَ للكلامِ أو التّفكُّرِ أو الرَّاحةِ ... لا وقتَ في شساعةِ الذّكرياتِ للآخر.

* * *

الحياةُ الوحيدةُ كانَتْ في حوضِ أسماكِ الزِّينة، المرأةُ البكماءُ في منزلها القصيِّ تعي الأمرَ جيّداً، تعلمُ أنَّها ميتةٌ أكثرَ منَ الطَّاولةِ التي كانتْ يوماً شجرةَ الجوزِ، فالشَّجرةُ على الأقل قد حقَّقَتْ أُمنيتها في الاستلقاء، استراحَتْ من همِّ الوقوفِ على ساقٍ

واحدةٍ، من وجعِ الظَّهرِ والأحلامِ المستحيلة، تفكِّرُ في الطَّاولةِ كثيراً غيرَ أنَّها لمْ تتمكَّنْ قطُّ من ترجمةِ ذلك الشُّعورِ المربكِ لزوجها الذي أمسى بحكمِ معاشرتها أبكمَ أيضاً.

الأصواتُ القميئةُ الوحيدةُ التي يعجُّ بها المكان بالإضافةِ للرَّصاصِ والطّائراتِ وسلاحِ المدفعيّة هي نقاطُ الماء الهاويةُ بتتالٍ محسوبٍ من فم الحنفيّة، صريرُ البابِ المكتوم، الأخبارُ تتلوها المذيعةُ الرَّصينةُ في التِّلفاز، طرقاتُ حذائِها ذي الكعبِ الطَّفيفِ إذْ تذعنُ بغتةً لنوباتِ الحنينِ... فتطوفُ بينَ الغُرفِ جيئةً وذهاباً، تُنَقِّطُ دموعها في كلِّ شبرٍ قبلَ أنْ تفقدَ الوعيَ تماماً، وبعدَ موتٍ مؤقَّتٍ تصحو، تثوبُ لرشدها، فتنهضُ وكأنْ من نومٍ، تتمطَّى بليونةٍ، تهدّئُ نفسها بأيِّ أمرٍ، كمراقبةِ السَّمَكَتيْنِ مثلاً، تستنزفانِ على الدَّوامِ اهتمامها، فجمالهما قد سرقَ من قبلُ قلوبَ الأطفال، تلكَ الرّهيفة التي لطالما جمعتْ لهما الدّيدانَ واليرقاتِ بتلهّفٍ، القلوبُ الآنْ تنبضُ بينَ الحراشِف، كائناتٌ رقيقةٌ تُواري في حناياها كائناتٍ رقيقةً، زوجها ليسَ معها ليُصَحِّحَ اعتقاداتها، لقد باتَ يغيبُ في الخارجِ كثيراً من دونَ أسبابٍ واضحةٍ، ربَّما ليبحثَ بدورهِ عن قلوبهم بينَ حشائشِ السَّهلِ القريبِ، تنصِتُ إلى الكلامِ المحتَمَلِ بينهما، إلى النَّظراتِ الضَّبابيّةِ، تُمسي الكائنَ الثَّالثَ في الحوضِ المستطيل، ذلكَ

الشَّفَّافِ الذي يضخُّ فيهما العواطفَ والقصص، جُلُّ ما يرجوهُ أن تسبحا... أن تأكلا... وأنْ يراقبَ في صمتٍ وفي صبرٍ تلكَ الحياة التي تصبحانها.

السَّمكة الذهبيّة أكبر وأرشق وأكثرُ سرعةً في انسيابها عبرَ محيطها المائيِّ الخانقِ لذلكَ فهي غالباً ما تلتقطُ الطَّعامَ أوَّلاً، أمّا المخطَّطة فهيَ الصَّغيرةُ... والضَّعيفَةُ... والخاسرةُ دوماً... والمتأخّرةُ دوماً والمظلومةُ في جميعِ الأحوال، كانَتْ الذَّهَبِيَّةُ شرَّاً مُطْلَقَاً، هذا ما اعتَقَدَتْهُ المرأةُ وهيَ تتملَّى هجومَها على الدَّوامِ كلَّما رَمَتْ لهما بفتاتِ خبزٍ أو أيَّةِ بقايا تغفَلُ عنها الحربُ في انتشارها اللَّعين، من عادةِ الأسماكِ أنْ تأكُلَ على غيرِ جوعٍ، ولكنْ تلك لمْ تكتفِ بالسَّيطرةِ على الغنائمِ وحسب، ولا بالأكلِ فوقَ الاحتمال، ولا أيضاً بسرقةِ اللّقيماتِ من فمِ شريكتها، كانَتْ تدورُ كزوبعةٍ حولَ الفتاتِ المتساقطِ، تتمَعَّجُ كأفعى، تسيطرُ على اتجاههِ بحنكةٍ، تدفعهُ بذيلها أنَّى تشاء، تحاصرهُ، تحرسهُ، تُناور، تتخفّى، تلتهمُ منهُ كلَّما استطاعَتْ، تهشُّ عنهُ صديقتها، تنهشُ أحلامها في البقاء، كانَ فيها شيءٌ ما عدوانيٌّ... وانتهازيٌّ وغيرُ مفهوم... شيءٌ ما لا يشبع، المخطّطةُ التي غالباً ما تنسحبُ تحومُ هناكَ في الأسفل حيثُ يحومُ احتمالُ حصولها

على بقايا البقايا... لم تنلْ حصَّتها مرَّةً لكنَّها غالباً ما تنسى، غالباً ما تلاصقُ الأُخرى بودٍّ، تحكُّ ظهرها بذيلها المهتاج، تطلبُ إذناً، تعقدُ صلحاً، وترسلُ لها إشاراتِ حُبٍّ غير مرئيّةٍ، المخطَّطة كانت الطّيبة وكانَ منظرُها مُثيراً بآنٍ للشّفقةِ والغضَبِ.

الأشياءُ الطَّيبة تتكسَّر بسهولةٍ، تتحطَّمُ في زمنٍ قصيرٍ، ربّما لأنَّ الزَّمنَ الذي يسري عليها ليس النّاظم لحيوات الأشياء الأخرى ذاتَهُ، العودُ الذي عزفَ عليهِ أكبرُ أبنائها مثلاً معزوفَةَ «رقصة ستي» تقَطَّعتْ أوتَارُهُ، الجدارُ الذي وارى خربشاتِ أصغرهم خردَقَتْهُ الرصاصاتُ الطَّائشات، الكعكعةُ التي قَضَمَتْ منها الأختُ الوسطى هلالاً قبل أنْ تخرجَ للأبد تعفَّنَتْ وتفتّتَت وتلاشَتْ، حتّى الحبلُ الذي نطّوا عليهِ جميعهم أمسى حبلاً فحسب، ربّما لذلكَ السَّبب تحديداً حدثَ يومها ما حدث، لقد لاحظَتْ أمراً غريباً في الحوضِ الزُّجاجيّ، سمكةٌ واحدةٌ تسبحُ والأخرى لَمْ تظهر منذُ حينٍ، اقتربتْ وفي نيّتها جردُ المخابئِ المحتملة، لكنها لم تحتجْ إلى البحثِ ولا إلى التَّفتيشِ، كانت الذَّهبيةُ طافيةً بهدوءٍ على سطحِ الماءِ.. جامدةً... منتفخةً، بدتْ ميتةً بالفعلِ، بل مقتولةً، فالكدماتُ والجروحُ التي حفَرَتْ في جسدها عميقاً تراءتْ بوضوحٍ من بعيدٍ، ظلَّ الأمرُ غامضاً

وغيرَ قابلٍ للتَّصديق إلى أن اندفعتِ الصَّغيرةُ الطَّيبةُ نحوها بغلٍ، اقتطعت بفمها جزءاً من الذَّيلِ المزركشِ الجذَّاب، غاصَ رأسها بينَ الحراشفِ الذَّهبيّةِ وكأنْ لينتزعَ لمعتها، وشيئاً فشيئاً بدأتِ بالتهامِ قِطَعٍ منها، لم تكن لتكتفي بمكانٍ محدَّدٍ وإنّما اهتاجَتْ على نحوٍ مغزليٍّ، عنيفٍ، هادرٍ، مجنونٍ لتنهشَ من هنا ومن هناك بآنٍ واحدٍ وكأنْ لا وسيلةَ لإطفاءِ غلِّها المكبوت، شهيَّةٌ خبيئةٌ للقتلِ والانتقامِ شرعتْ تتكشَّفُ ثانيَةً تلو الأُخرى، الوداعةُ المطلقةُ التي كانتها تمزَّقَتْ، الخيرُ الكثيرُ الذي شعَّ منها كانَ غلالةً رقيقةً تسترُ الشَّرَّ الكثير، راحَ الجسمُ المعلَّقُ يميدُ تحتَ هجماتها مُستكيناً لحفلةِ التَّعذيبِ، يفورُ الماءُ من تحتهِ و من فوقهِ، ولا ينجحُ مهما تماوجَ في تهدئةِ رغباتها الثَّائِرةِ، كانَتْ تكملِ ما بدأتْهُ بتلذُّذٍ مستجيبةً على نحوٍ جنونيٍّ لمركزِ المتعةِ في دماغها... ذاكَ الذي بدا جليّاً أنّهُ استبدلَ شيفراتهُ بأُخرى، وفجأةً أدركَتِ المرأةُ أنَّ تلكَ المخطَّطة التي تتلوّى أمامها في المياهِ السّاكنةِ ليستِ السَّمكة، وإنّما الوحشُ الذي كانها، كابَدَتْ كيما تستطيعُ مواصلةَ التَّنفّس، تلبَّدتْ عيناها بسحبٍ شفّافةٍ، حاولَتْ أنْ تهتفَ: «يا الله»... إلّا أنّها لم تفلح.

* * *

إذَّاكَ انبَعَثَتْ رائِحَةٌ نتِنةٌ مِنْ كُلِّ شَيءٍ في كُوخِهِمَا البَعِيدِ، الشحيحِ الإنارةِ، الذّليلِ الحالِ والمخنوقِ بلا رحْمةٍ بينَ هَضَبتَينِ، قبلَ الحربِ كانَ بائعَ أكفانٍ، بعدها أمسى بائعَ موتى، كلما عاد بجثةٍ، يتقوسُ ظهرهُ فيها الأجسادُ الباردةُ تتدلَّى عن كتفيهِ واحداً تلو الآخر، صارَ يجيءُ محمَّلاً بالذَّنبِ والغلِّ، في البداية كانَ يسوِّغُ لها بغيَةَ إيقافِ نوباتِ بكائها الهيستيريّة، كانت تغتمُّ أيَّاماً، ترسمُ بيديها كلماتٍ في الهواء، ترجوهُ بأصابعَ مضمومةٍ، تُشَكّلُ الرّبَّ بينَ يديها بألفِ حركةٍ، لكنَّهُ لم ينصَع لرجاءاتها، شيءٌ فيهِ كانَ يودُّ الانتقام من العالم، وشيءٌ فيها ظلَّ يرمقهُ بنظراتِ لومٍ ساخطةٍ.

مرَّةً خُيِّلَ إليهِ أنَّها شتمتهُ، لَمْ يُصَدِّقْ أوَّلَ الأمرِ أذنيْهِ، كانتْ تُقَطِّعُ البصلَ وحسب، فسَّرَ الأمرَ سريعاً على أنَّ سَمْعَهُ ولاشكَّ يبلى ككلِّ حواسّه، كذَّبَ النبرَةَ المُرْتَجِفَةَ وهيَ تَحملُ ضَغنها نَفَساً إثْرَ نَفَسٍ، تَمَالَكَ مُخَيِّلَتَهُ، دنا منها، وهَتَفَ في أُذْنِها:

«إنْ لَمْ نَجِدْ فِي جُيُوبِهِمْ ما نَبِيعُهُ... قَدْ نأكُلُ لَحَمَهُمْ لِنَعيش، تعرفينَ أنَّنا لا نستطيعُ الهرب، نحن مُحَاطَان بجحافلَ متناحرةٍ، علينا أنْ نُخْضِعَ هذهِ البيئة القذرة التي نحيا فيها وإلّا سحقتنا، هل

تفهمين؟، لا أطمعُ بحياةٍ هنيئةٍ... جُلُّ ما أرجوهُ ألّا نموتَ جوعاً كفأرينِ عجوزينِ... صدِّقيني»

كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ أَكلَهم وأكلَ ذكْرَاهم سيَّان وما من مَفَرّ، بَعضُ الجنودِ مِنَ الجَانِبَيْنِ تُجَّار، كانَ يقَايضُهمْ بأَخْذِ وجباتِهم اليوميَّةِ مِنْ خُبْزٍ وبطاطا مسلوقة مُقَابلَ العملةِ الورَقِيَّةِ وسَاعَاتِ اليدِ وصُوَرِ الحبيباتِ المجهولاتِ والأَحذيةِ والأدعيةِ المطويّةِ بحذَرٍ في الوَرَقِ الأسمَرِ، ولكنَّ المبادلاتِ الرَّخيصةَ لمْ تَعدْ عليهِ إلّا بالحياةِ الرَّخيصة. الزَّوجةُ التي انصرفت لتُطْعمَ السَّمكة لم يخامرها الشكُّ في كذبهِ، تملَّى مشيتها العصبيّة، فوصلتهُ من فورها رسالتها الموجزة **«لم أقتنع»**.

تغيَّرَتْ طريقُ سباحةِ السَّمكةِ المخطَّطة، إنَّها تُقَلِّبُ جسَدَها في الماءِ بطريقةٍ استعراضيَّةٍ، وكأنّها تسعى لبسطِ هيمنتها على كلِّ ذرَّةٍ فيهِ، لم تَعدْ تهدأُ أو تشبعُ، والمرأةُ البكماءُ لمْ تعد تعلمُ ما الذي ينبغي أن تفعله، هل ترمي بها في البالوعة كقصاصٍ عادلٍ عمَّا اقترفته؟، هل تترفّقُ بها لأنَّها من ذاكرةِ الأبناء؟، هل تدلّلها فتعوّضها عمّا لحقها من أذيّةٍ شوَّهتها بعدَ أن قادها الظُّلم إلى ما هي عليه؟، تراها فقدت عقلها؟ أم قلبها؟... هذا ما تسألُ نفسها إيّاه كلَّ يومٍ.

توقَّفَتْ عن إطعامها يومْينِ، توقَّفَتْ عن الاقترابِ منها، وسحبتْ جثَّةَ الكائنِ الثَّالثِ إلى صدرها، في اليومِ الثَّالثِ هاجَتْ مشاعرها، أدركَتْ أنَّها شريكةٌ في ما نالها من قسوةٍ، كانَ عليها ألَّا تتفرَّجَ على الظُّلم، أن تنقلها إلى حوضٍ آخر، أن تتصدَّى معها للضَّيم، وألَّا تلومها بعدَ أنْ تركتها وحيدةً في مواجهتِهِ، لكنْ لم تكدْ تدنو منها حتَّى لاحظتْ ما حلَّ بها، كانت تخبطُ بجسدها بلّورَ الحوض على نحوٍ مؤثّرٍ، والحجارةَ أيضاً، والأعشابَ الاصطناعيّةَ، إلى أنْ امتلأَ سريعاً بالعديدِ من البُقَعِ الدَّاكنةِ، تصدُّعاتٌ هتّكتْ غلاصمها، فقاعاتٌ كبيرةٌ وغريبةٌ خرجتْ منها محمَّلةً بالبريقِ والرّقة، السَّمكةُ التي حاولتِ الانتحار... قد انتحرتْ.

* * *

بَكْماءُ ولَكِنهَّا تَصرُخُ: «سَافِل»...

باتَ يسمعها كلَّما التفَتَ، بصوتها، ببحَّتها، بذلكَ القهرِ المعتملِ في عينيها، تراها تتقصَّدُ ألّا يراها كلَّما هَمَسَتْ؟، تراها لم تفقدْ صوتها أصلاً؟ أم أنَّها لنيَّةٍ ما تُخَطِّطُ لسلبهِ عقلهُ؟، هذا ما شرَعَ يُفكِّرُ فيهِ.

«سافل» الكلمةُ تتمَدَّدُ في كلِّ الاتجاهات، تتفشَّى كالوشوشة الخافتة، تبتلعُ البيتَ الميّتَ، تُصبحُ التَّضاريسَ حولهُ، تستشري في أعصابهِ، إلى أن تملَّكتهُ الثّقة بأنَّ أذنيهِ بريئتان من أيَّةِ وساوسَ...

لم يكنْ هنالكَ أساسٌ عاطفيٌّ أو منطقيٌّ للشكّلِ الذي وصلت إليه حياتهما، تلك التي أمسَتْ نوعاً من النَّزفِ المتواصلِ، قضَّتْ الوساوسُ مضجعهُ ليالِيَ طوالاً، إلى أنْ قرَّر ألَّا يتكتَّم على مشاعرهِ الخانقةِ أكثر، شرعَ يُصارحِها، يَسْألها دونَ توانٍ إنْ رجعَ صوتها، يدمدمُ علَّهُ يُطَمْئِنُها:

«تتكلّمين؟! سيكونُ أجملَ حدثٍ في حياتي»

تنفي، يتابع:

«طيّب ألمْ تفلتْ منكِ ولو كلمةً؟ ولو بالخطأ؟»

تُنْكِرُ، يُشَكِّك، تبكي فتتكسَّرُ صورتُهُ في عينيها المزجَّجتينِ، يغضبُ، تنهار، يخرجُ مغتاظاً رغمَ احتدامِ النّيرانِ، يُكرّرُ ذلكَ يوميّاً، ويوميّاً تستطيلُ غيبوبتها من السُّؤالِ إلى السُّؤال.

في الآونة الأخيرة راحتْ تَبْصُقُ الكلمةَ كلَّما سها عنها، وكأنَما تَطْرَحُ معها حبالها الصَّوتيَّة، ذلكَ ما كانَ يحسّهُ بالضَّبط،

لمْ يعدْ لديهِ أدنى شكّ، رَاقَبَهَا، حَاوَلَ أنْ يَضْبِطَها، لكن بدا له أنَّ فمها المُطْبَقَ على نفسهِ، قد اندَمَلَ تحتَ ابتسامةٍ خبيئةٍ وإلى الأبد، بدأتْ تستفيقُ على حملقاتهِ الغريبةِ، أمسى مجرَّد وجودهِ مبعثاً للرُّعبِ والاضطراب، ظَلَّ يُصغي للكلمة وهيَ تَخرجُ منها كالفحيحِ، **«هلْ يُعقَلُ أنْ تحزنَ على سمكةٍ! على موتى! على قَتَلةٍ!»** تساءلَ مطوَّلاً... **«وهل ما زالَ لديها مُتَّسَعٌ من الحزن أصلاً!»... «ناكرةُ الفضلِ... لولايَ لماتتْ منذُ زمنٍ».**

وفي يومٍ من الأيَّام تغيَّرَ كُلُّ شيءٍ ...

استيقَظَ بَعْدَ حلمٍ رجلاً آخر، لم يَعُدْ يُنكِّسُ رأسَهُ، أو يُذْعِنُ للحزنِ، باتَ يَخرجُ بتلهُّفٍ، دونما خوفٍ، يبيعُ مقتنيات الجيوب والهويّات العسكريّة والجثث أيضاً، يبيعُ للصَّديقِ صديقه وللعدوِّ عدوَّهُ، ويرجعُ لا بِصُرَرِ الطَّعام فحسب وإنّما بالمال والسِّلاحِ أيضاً، قَتَلَ مرَّةً رَجُلاً لَمْ يَدْفَع لَهُ، وبعدَهَا صارَ يقتلُ لِيُخَلِّصَ قتلاهُ مَا يملكونَ.

كانَ يشعرُ بأَنَّهُ يتحوَّلُ إلى مسخٍ حرفياً، جلدهُ يَغْمَقُ، يتشقّق، يقسو، عيناهُ تقدحان شرراً، ووجهه ينسلخُ عن آخر أكثرَ دمامةً وتجهُّماً، زوجتهُ أيضاً لاحظَتْ ذلك، الوحشُ الذي خرجَ منهُ كانَ مرادفاً عجيباً للسَّمكةِ الصَّغيرةِ التي تغذَّتْ على الغلّ...

لم يبقَ لديهِ شكٌّ في مراوغتها، في مكرها، في سرٍّ ما تُواريهِ خلفَ بسمتها الرَّقيقة، إنّها تُرَبّي فيهِ الخوفَ والهشاشةَ، وقد خُيِّلَ إليهِ أنَّها ليسَتْ أكثرَ من نقمةٍ تتمشَّى في ثيابِ امرأةٍ. باتَ نهباً لهواجسَ متضاربةٍ، راودتهُ فكرةُ قتلها مراراً، كانَ يعصرُ عنقها بينَ كفَّيه، وينتزعُ خصلاً ساخنةً من شعرها المتناثر كالخواتم، ثمَّ سرعانَ ما ينهار أمامها، تلمعُ في خيالهِ صورتُها وهيَ تُغَنِّي للأطفال... تضحكُ لهُ... تتَغَنَّج وتختلقُ الأمل بالمهارةِ ذاتها التي تطرِّزُ فيها وردةً باهرةً على قماشٍ رثٍّ، يجثو على ركبتَيهِ، يتكسَّر، يتهاوى، ويهزُّها من قدميها، يزجرها متلعثماً:

«قولي... منذُ متى تتكلَّمين؟... منذ شهرٍ؟ شهرين؟ ثلاثة؟ سنة؟... ردِّي... ردّي أتوسَّلُ إليكِ»

تصمتُ بانشداهٍ، لا تردُّ، ثُمَّ تهزُّ رأسها نافيةً، تومئُ بأيْمَانٍ مبهمةٍ، تيئسُ أمَامَ غليانهِ، تئنُّ، تُحرِّكُ شفتيها بلا صوتٍ، وتتناثرُ دمعاتُها فوقِ رأسهِ.

ذاتَ غضبٍ فَقَدَ صوَابَهُ، مادَتْ تُفَّاحَةُ آدم في عنقهِ وهيَ ترتدُّ عن ريقٍ ابتَلَعَهُ، أفرغَ طلقات البندقيّةِ في رأسها، وتهالكَ أمامها غيرَ واعٍ، وفجأةً تعالى الصَّوتُ: **«سافل... سافل»**، زحفَ

نحوها، قرفصَ قربَ جثَّتها، مَرَّرَ يَدَهُ على جسدها الفاتر، راقبَ آخرَ دمعةٍ فرَّتِ من العينِ المُغلقة، قَلَّبَها يتحرَّى مصدر الصوت، استنشَقَ نفَسَها الأخيرَ المتغلغلَ في الهواء، تَطَلَّعَ إلى نبضةٍ ضعيفةٍ في شريانِ عنقها، تَحَسَّسهُ برفقٍ، كادَ يُقبِّلهُ حينما انسربَتِ الكلمةُ مِنَ الفمِ المطبق، تقافزتِ العفاريتُ فيهِ، قطعَ لسانها بسكينِ الفاكهة، وخرجَ بلا عقلٍ مُتَهَدِّلَ الكتفينِ... مُلتَاثَ الخطى.

وهنالكَ أينَمَا كَانَ يَسِيرُ كانَ يوزِّعُ على السَّماءِ نظراتهِ الخاطفة فيما كَانَ صَوتُهَا يُواصلُ الخروجَ مِنهُ واثقاً... بلا رجْفَةٍ، فيردُّ عليهِ الصدى من كلِّ مكانٍ مُدَوِّيَاً ومتواثباً بينَ الهضاب:

«سافل... سافل... سافل»

في القلب تماماً

في القلب تماماً... أصابتني الرَّصاصةُ الطَّائشةُ.

لم أشعر لحظتها بشيءٍ... بأيِّ شيءٍ على الإطلاق، لكنَّ السُّعار الذي أصابَ المارَّةَ من حولي جعلني أتطلَّعُ مطوَّلاً إلى المكانِ الذي ينظرونَ إليهِ... قلبي.

المدهش أنَّ كلَّ شيءٍ بدا طبيعيّاً باستثناءِ الزِّرِ الأحمرِ العلويِّ في قميصي، ذلكَ اللّامعِ تحتَ الياقةِ المفرودة على الجانبين، لقدْ كانَ مفتوحاً على عادتهِ حينما لا يعدمُ الوسيلةَ للتَّنصلِ من عروتهِ، زرَّرتهُ، فيما احترقَتْ وجنتايَ بالتَّدريجِ، تُرى ما الذي يحصل؟، كلّنا سمعنا إطلاق النَّار، أعتقدْ أنَّها لَمْ تُصِبني تماماً، ربَّما مسَّتني أو أنَّ صوتها هو من اختلقَ «السيناريو» بنفسهِ، خيِّلَ إليَ ذلكَ مع شعوري المتعاظم بأنها اخترقتني، المشاعرُ قاتلة، مجرَّدُ مرورها بجانبي أوحى لي باحتراقٍ شديدٍ وألمٍ مبرِّحٍ شبيهٍ إلى حدٍّ بعيدٍ بسكّينٍ يطعنني دونما توقّفٍ، في الواقعِ شعرتُ بدمائي الدَّافئةِ تسيلُ على جسمي، شعرتُ بها تترقرقُ على إسفلتِ الطَّريقِ، لمْ أستطعْ إيقافَ تلك الأحاسيسِ

الغريبةِ حتّى بعد أنْ تفقَّدْتُني جيّداً ولم أعثرْ فيَّ على غزَّةِ دبُّوسٍ، عيناىَ أيضاً شاركتا في الجريمة أوقعتا في نفسي صورةً مفادها أنَّ جلدي يتورَّم ويتبقَّع ويحكّني كالمصابينَ بالجَرَبِ.

كنتُ أتندَّرُ مع صديقاتي على البلبلةِ التي خلقتها الحربُ الطَّويلة، كنَّا نفكِّرُ بتصميمِ فساتينَ واقيةٍ من الرَّصاص مثلاً... أساورَ سامّةٍ... أقراطٍ من قنابلَ منمنمةٍ للدّفاعِ عن النَّفس، إلى أن قُتِلَتِ اثنتين منهنَّ بطلقٍ ناريٍّ مجهول المصدر، مذَّاك ونحنُ لا نضحك... لم نعد نجيدُ الأمر رغمَ محاولاتنا البائسة، تناسي البديهيّاتِ السلوكيةِ ليسَ سهلاً لكنْ إنْ حدثَ فسيقود لا محالةَ إلى النسيانِ الممنهجِ وعندها سيصبحُ من المستحيلِ استعادتها، فكلُّ الخساراتِ فادحةٌ مهما حاولنا التَّقليلَ من شأنها...

تبخَّرَتِ الأعراضُ الوهميَّةُ سريعاً، انتَشَلْتُنِي من المكانِ بأسرع ما أُوتيتُ من الخُطا، محاذرةً أن أصطدمَ بعينيْ أيٍّ كان، وصلتُ إلى طريقٍ آخر لم أسلكهُ من قبل، الطريقُ مضى بي إلى طريقٍ، ولكنَّ رغبة في العودة لم تكبحْ قدميَّ السَّائرتينِ، أيقنتُ أنَّ ما اعتراني ما هو إلّا إشارةٌ خفيَّةٌ لدفعي إلى تنفيذِ ما عزمتُ عليهِ طويلاً.... لن أعودَ مجدَّداً إلى البيت، فهنالكَ لا ينتظرني أحدٌ.

الطَّقْسُ لطيفٌ... نسائمهُ تسوقُ النَّفْسَ إلى السَّكينة، تنقَّلتُ بينَ المَحَالِّ وحيدةً كالظِّلالِ الباهتة، كلُّ ما عليَّ فعلهُ هو الشّراء، فالتَّسَوُّقُ لدينا نحنُ النّساء نوعٌ فاخرٌ من المهدِّئاتِ، انتقَيتُ لنفسي قرطينِ رخيصينِ مُذَهَّبينِ، رجَوتُ البائِعَ المشدوهَ كيمَا يُغَلِّفُهُما بورقٍ لَمَّاعٍ و«سولوفان» أحمر، ولكنَّ تطلُّبي قدْ ساءَهُ على ما يبدو، فأعادَ تعليقهما فوقَ العارضِ المعدنيِّ بلا اكتراثٍ، ابتعتُ شموعاً وحبلَ زينةٍ، وطَلَبْتُ مِنَ الفتى وهو يعصُرُ الكريما البيضاء فوقَ القالبِ الدَّاكنِ أنْ يكتُبَ «عيدٌ سعيدٌ»، دَفَعتُ ثَمَنَهُ وغَادَرْتُ، غالباً ما يَنْقَلبُ التَّظاهرُ بالسَّعادةِ إلى سعادةٍ، هذا ما تَعَلَّمتُهُ من طفولتي الكئيبة.

لا أحدَ في البيت...، تركني أخي سعياً خلفَ مستقبله، والمستقبلُ عندهُ لم يلمعْ إلّا غرباً، نقلتهُ إليهِ الطَّائرة، إنَّهُ الآن في المستقبل ولكنَّهُ لا يعلم، أنا فحسب أعرفُ ذلكَ لأنّي مازلتُ أنتظرهُ في ماضينا، أمّا الغد إلى من يعيشونَ حاضرهم الحقيقيّ فليسَ أكثرَ من الجزرةِ المشتهاةِ التي لنْ يحظوا بها مهما بذلوا، أعتقدُ أنَّ الزَّمنَ هو الآلة التي تحوّلُ انتظاراتنا وآمالنا إلى أشياء مستعملة من دون أن نلحظَ، أَخواتي أيضاً تزوَّجنَ من دونِ

حُبٍّ خلاصاً من «حياتنا الحقيرة» كما كنَّ يُردّدن، أبي ملَّ الحياةَ بعدَ والدتي وماتَ كمداً عليها، لم يقبلْ أحدٌ أنْ يبقى ليجمِّلَ معي «الحياة الحقيرة». وحدي بذلتُ ما في وسعي لتغييرِ العالم... العالمَ الذي لا يتغيَّر، وحدي بقيتُ لأسندَ الجدران... بيتونها صارَ مادَّةَ عظمي، لكأنّني أنا بيتها، تخرجُ منّي حينَ أُغادر المنزل وتؤوبُ إليَّ كلَّما عدتُ.

في آخرِ الشَّارعِ كَانَ فتى الكريما يلهثُ خلفي، بكيسٍ مملوءٍ بالسَّعاداتِ الخفيفةِ وبصوتٍ رفيعٍ مُتَقَطِّعٍ هتفَ: **«يا سيّدتي... نسيتِ القالب»**، شهقتُ، تطلَّعتُ إلى يديَّ الخاويتين، كدتُ أخطفهُ مِنْ أصابعهِ ممتنّةً لولا فَعَلتِ العجوزُ التي كان يخاطبها، لملمتُ الضَّجيجَ الذي أثرتُهُ بتوقّفي، ابتلعتُ الكلمات المزدحمة في حنجرتي: **«أنا أيضاً نسيتُ قالبي ليست وحدها... ألا تذكر؟»... «كلُّ شيءٍ في هذي البلاد يتواطأ ضدّي يا أُمّي... متِّ وأنتِ لا تصدّقين؟»**، لم أُفكر بالعودة لاسترجاعِ حاجيّاتي، لمْ تعدْ تعنيني، انسحبتُ من دونَ أنْ أُمَكِّنَهُ مِنَ الإصغاءِ إلى حفيفِ أوراقِ الشَّجرةِ لحظَةَ ضَحِكَتْ منّي، غَادَرَ، نظرتُ إليها بحنقٍ، فتلوَّنَتْ، تنصَّتُ لجذعها، كانتْ تغنّي هَمْسَاً: **«سنة حلوة**

يا جميل»، من طيبتها حاولَتْ مواساتي، مَشيتُ والمطرُ يزربُ من شَعْرِي، يَغْسِلُ مِنْهُ الذِّكريات، كُلُّها جميلةٌ مع أنِّي واثقةٌ بكونِي لَمْ أعِشْ في الواقعِ أيَّةَ لحظَاتٍ جميلةٍ، أصْبَحَ شعري فجأةً بلا ماضٍ، أقوى النِّساء امرأةٌ بِشَعْرٍ لا يتَذكَّر...

بدأتُ أُعاني برودةً لاذعةً أتتْ على أطرافي، كانَ الأمرُ أشبهَ برياحٍ ثلجيّةٍ تهبُّ في جسدي، تملَّكني الجوعُ والعطشُ بآنٍ، اشتريتُ وجبةً ساخنةً وعبوةَ ماءٍ، شعَّ المساءُ لحظتها بلونِ الذَّهب، لكنَّ وحشةً غامضةً لفَّتِ المدينة، لا عصافير تطير، لا أولاد يلعبون، لا باعة، لا موسيقا تنبعثُ من أيِّ مذياعٍ خلفَ تلكَ الشَّبابيكِ البعيدة، الإضاءة الباهتة نزَّتْ بمشقَّةٍ من أعمدةِ الإنارة، أماكنُ الفرحِ يَؤمُّها الحزانى، والمقاهي تضجُّ بالسّأمِ، النَّاسُ السَّائرونَ هياكلُ فحسب، أرواحهم في أماكنَ أُخرى مشغولةٌ بهمومٍ خفيّةٍ.

أمطرتْ فجأةً، و بغزارةٍ، هذا الصَّيفُ مريبٌ حقّاً، كانَ عليَّ أنْ أحتمي في مكانٍ ما، راعني سربٌ من النمل يمشي معي، في الحقيقة أنا من تعقَّبْتُهُ، استسلمتُ لوجهتِهِ، أوصلني إلى عمودٍ رومانيٍّ وسطَ المدينة الكالحة، غاصَتْ قدمايَ في الوحل، لَمْ أهتمّ، هنالكَ

لنْ يَشُمَّ أحدٌ رائحةَ ضياعي إذا ما فاحَتْ، صَدَّقْتُ الغيمةَ فوقي إذ قَالَتْ: **«جئتُ لأبكي معك»**، لَمْ أكنْ أبكي ولكنّها اعتصَرَتْ فوقي، اعتدتُ الإيمانَ بالكلمات، الغيمةُ التي استنفدتْ كتلتها فوقي، أنجبَتْ نفسها مرَّةً أخرى، انفلشَتْ في الأعلى ببطءٍ، التعاطفُ يتوالدُ دونما انقطاعٍ... لقَدْ ملأتْ وحدها سقفَ السَّماء.

انتابتني أعراضٌ جديدةٌ... ضيقٌ في الصَّدرِ... وخدرٌ في الذّراع... وثقلٌ في الرّأسِ وألمٌ حارقٌ في المعدة، زاغَ بصري، فتهاويتُ على مقعدٍ عتيقٍ، اعتقدتُ أنَّ استراحةً أو إغفاءةً صغيرةً قَدْ تُبَدِّدُ ما اعتراني من ضيقٍ، أغمضتُ عينيَّ، اغتصبتُ منهما إطباقةً طويلةً، وفي الحلمِ وجدتني أهوي بخفَّةٍ... بهشاشةٍ فلا تلمسني أرضٌ، ذُعِرتُ، تعرَّقتُ، وأفقتُ لحظةَ لامسَ خدّي كتفي، عنده تدفّقَ صوتهُ في أُذنيَّ: **«بإمكاني الجلوس؟»**، سألني الرَّجلُ المضيءُ الذي نبتَ أمامي دونما إنذارٍ مشيراً إلى طرفِ المقعدِ، تهافَتَتْ أصابعي نحو الياقة، تحسَّسَتِ الزرَّ المراوغ، اطمأنَّتْ إلى حالهِ وعادتْ، حدَّقتُ بدهشةٍ إلى الهالةِ المُبْهِجَةِ التي أحاطتهُ بعنايةٍ، جَلَسَ بتهذيبٍ بعدَ أنْ طال سكوتي، توتَّرتُ أوَّلَ الأمرِ، خفتُ، حَدَّجتُ فيهِ بتوجُّسٍ، لَمْ يَحِدْ بَصَرُهُ عنّي، انتابتني

رفرفةٌ عجيبةٌ في صدري، وبقيتُ وهلةً ضائعةً ما بينَ الرَّصاصة والكابوسِ وصوته العميقِ المحايد، كانَ رجلاً هادئاً، متَّزناً، مبتسماً، جعلني أقتنعُ بلا مقدِّماتٍ بأنَّ البسمةَ لا تظلُّ معلَّقةً على الشّفاهِ، إنَّها تذوبُ في الصّوت أيضاً، تُعزِّزُ فيهِ نكهتها، تنسربُ في الدّم، تسري في الرُّوح، تتشرّبُها العينان فتزدانانِ بدوَّاماتٍ من الشّهبِ، لقد كانَ بسمةً كبيرةً بجسدِ رجلٍ، انحرفَتْ عيناهُ الشَّاردتانِ نحوي، فارتعشتْ، قُوَّةً غريبةً كانتْ تلك التي أحدثتها نظرةٌ خاطفةٌ في قلبي، شعرتُ بقوَّةٍ بأنَّي عشتُ هذا المشهدَ من قبل، وأنِّي أعرفُ ما يحدثُ الآنَ و ما سيحدثُ بَعْدَهُ، العلمُ يُفَسِّرُ الحالةَ تماماً ويَعدُّها ضرباً من خداع الحواسِّ، سيَّالات عصبيّة فَقَدَتْ رُشْدَها، هَذَرَاتُ ذهنيَّة ليس إلَّا...

وفجأةً اهتزَّتِ الدُّنيا، بناءٌ انهارَ خلفنا، وآخر تشظَّى زجاجُ نوافذه، صراخٌ، وغبارٌ، ودخانٌ، و أقدامٌ راكضةٌ في كلِّ مكانٍ، ربّما سألتُ: **«ماذا يجري؟»**، لكنّهُ لمْ يهتمّ، كانَ يجرّني من يدي، يدفعني في منفذٍ مسقوفٍ بينَ جدارين، وهناك ضغطني من كتفيَّ و صاحَ بي:

«ظلّي هنا لا تتحرّكي... حافظي على رأسكِ تحت ذلك القوس»

جاريتُ صراخه:

- ماذا يحدث؟

- قذيفةٌ جديدةٌ

- يا الله

- لا تخافي

قبل أنْ أتفحَّصَ خوفي، سقطتْ قذيفةٌ أخرى أقربُ بكثيرٍ من السَّابقة، أغلقتُ أُذنيَّ براحتيَّ، وحشرتُ رأسي بينَ رُكْبَتَيْ، حلَّ هدوءٌ مريبٌ، تبعهُ وجودٌ مكثَّفٌ لسيَّاراتِ الإسعافِ، حدَّقتُ فيهِ مجدَّداً، كانَ يرصدُ المواقعَ المنكوبة متنقّلاً بينَ نهايَتَي الجدارين، سألتُهُ بأحرفٍ راجفةٍ:

- هل نخرجُ الآن؟

- لا ... انتظري قليلاً فالمنطقةُ مستهدفةٌ على ما يبدو

- إلى متى؟

- لا أعرف

تهاوى قبالتي مستنداً إلى الحائطِ الرَّطبِ، رفعَ حاجبيه يُعاينُ ارتعاشي، قاسني بعينينِ دافئتينِ، ثُمَّ وافاني صوته مربّتاً على قلقي:

- نحنُ في مأمنٍ هنا وسنخرجُ بعدَ حينٍ... لن يطولَ انتظاركِ.

- نعم

- هل أنتِ على ما يرام؟

- نعم

- اعذري تدخّلي ولكن هل تشعرينَ بألمٍ ما؟

- لا شيء... أشعرُ أنَّني بالكادِ متّ

- لم أفهم... هل ماتَ عزيزٌ عليكِ؟

- لا... لا أعني الشُّعورَ المعنوي، لا أعرفُ كيفَ أشرحُ لك... لكن...، لا عليكَ تهيُّؤاتٌ طبيعيّةٌ فنحنُ محاطان كما ترى بالموتِ من كلِّ جانبٍ.

- لستِ مجبرةً على الحديثِ لغريبٍ مثلي، لكن يبدو أنَّنا سننتظرُ معاً وقتاً أطول، إن تكلَّمتِ فقد تخفِّفينَ عنكِ... وعنّي أيضاً فظاظةَ الانحشار بينَ جدارين.

تطلَّعَتُ إليهِ بانبهارٍ، لمْ أتخيَّل أنَّ حواراً عابراً سيمسي نوعاً من البوحِ، لم يحدُث أنِ استسلمتُ للساني من قبل، لكنّ سحراً

ما قد ألهبَ رغبتي في الكلامِ، همَسَتُ وأنا أطوي الذّهولَ تحتَ أجفاني المتعبة:

- حسناً... كنتُ في السُّوق حينما سمعَ الجميع تبادلاً قريباً لإطلاق النَّار، لم يكترثْ أحد، معظمُ النَّاسُ اكتفوا بالتفاتاتٍ قصيرةٍ، بدا لي أنَّ جميعهم مقتنعونَ بضرورةِ التآلفِ العميقِ مع ما يحدث، في الواقعِ كنتُ إحداهم إلى أن شعرتُ فجأةً بأنَّ رصاصةً قد اخترقتْ قلبي... بالكاد مشيت حتّى بدأتْ أعراضٌ غريبةٌ تنتابني... ستستغربُ إنْ أخبرتكَ بأنّني أحسُّ بالنَّزفِ حتّى هذهِ اللحظة.

- لن أستغرب، شعرتُ بذلكَ من قبل فأنا طبيبٌ وكثيراً ما اختبرتُ الموتَ مع مرضاي، وفي مرَّةٍ حدثَ لي أفظعُ ممّا ألمَّبكِ...

أخذَ شهيقاً عميقاً كما لو كانَ قدْ نكأ جرحاً، لكنّه سرعانَ ما استعادَ ابتسامته، نظرَ إليَّ بودٍّ، كنتُ مصغيةً بترقُّبٍ، حدَّقَ إلى نقطةٍ مجهولةٍ وتابعَ:

- كانَ حادثَ سيرٍ لم أحسبْ حسابَه، وكنتُ أقودُ مسرعاً لأصِلَ إلى أمّي المريضة، سمعتُّ فجأةً صوتَ ارتطام، شعرتُ

بسيَّارتي تنقلبُ ثلاثَ مرَّاتٍ في الهواء، ثمَّ تتدحرجُ في هاويةٍ ما، بعدها مباشرةً انطفأَتْ فأحاطتني من كلِّ اتّجاهٍ بهدوءٍ عجيبٍ، لم أشعر بشيءٍ بتاتاً وكأنّني أنا من انطَفَأتْ، لكنَّ طنيناً مفزعاً أخذ يدوِّي في أُذنيَّ كلَّ حينٍ، أحدٌ ما سألني: «هل أنتَ بخير؟»، لم أره، كنتُ عاجزاً عن إجابتهِ، كنتُ مشوَّشاً تماماً وشارداً، بطريقةٍ ما خرجتُ، ولتزيدَ «دراميّةَ» الحادثة سرتُ وحدي مسافةً طويلةً كما لو أنَّي أتهادى في ثوبِ تخفٍّ، جلستُ كما أجلسُ الآنَ دافعاً ظهري إلى جدارٍ، راودتني لحظتها رغبةٌ لا أُجيدُ تفسيرها في الضَّحك، انتابني دوارٌ طويلٌ وعطشٌ غيرُ مسبوقٍ، عندئذٍ بدأتْ رقبتي تؤلمني... قدمايَ... مفاصلي، ورغمَ توقّفِ ذاكرتي عندَ تلك النّهاية فإنّني أتفهّمُ عواطفي... أعصابي... نفسي... أفهمُ أنَّ كلَّ سوءٍ تختلقهُ لي هو وسيلتها - من وجهةِ نظرها - لحمايتي... الموتُ يا عزيزتي ليسَ شعوراً وإنّما نهايةٌ لأيِّ شعورٍ... جميعنا نخشى النهاية تلك التي لن نشعرَ بها أبداً، صدِّقيني هنالكَ فرقٌ بينَ الألم والفزع، وإنّي لأحسبُ أنَّ الحوادثَ لا تؤلمُ... المؤلمُ حقّاً ما يأتي بعدها وهذا يتطلَّبُ أن تكوني حيَّةً.

- لا أعرفُ ما عليَّ قوله... أرحتني؟ أحزنتني؟، لكن معكَ حق... يبدو لي أنَّ الأمر ينسحبُ أيضاً على كلِّ شيءٍ في الحياة، نمضي جزءاً ليس باليسيرِ من أعمارنا خائفينَ من أشياء لن تحدث أبداً.

مالَ برأسهِ إلى الخلف متجنّباً النّظرَ في عينيَّ الغائمتين، همسَ على سبيلِ إطالةِ الحديثِ وفي نيّتهِ إشغالي عن التّفكّرِ في الخطرِ:

- تعرفين الأجساد محصَّنة ضدَّ الموتِ بطريقةٍ منظَّمة مع أنّها مادّيّة وستبلى لكنّها تحتال على الألم وتوقفهُ في اللَّحظة الحاسمة، أنفسنا لا... إنَّها تحملُ ضعفنا كلّه... حتى الجسديّ منه، إنّها ترتمي بسلاسةٍ بينَ أنيابِ الخوفِ والقلق، إنّها تصرخُ فيهِ: «كُلني».

- كلامكُ يجعلني أتماسك، هل سيبدو الأمرُ كذلكَ إنْ نالتْ منّا القذيفة في هذهِ اللّحظة.

- ربّما

- في ظلِ النّهاياتِ المحتملة أنّى توجّهنا تصبحُ ميتاتُ الأمراضِ الجسدية مشتهاةً كالأُمنيات.

- في الحقيقة إنَّ الأمراضَ وحدها تساوي آلامها تماماً

- لا أعرفُ لماذا أُفكّرُ الآنَ في ميتاتِ كلِّ من عرفتهم.... منهم من قضى غرقاً ومنهم من قضى نحراً ومنهم من سقطَ من شاهقٍ سهواً.... منهم أيضاً من انتحر.

- مقارنةً بأشكالِ القتلِ كلّها فالحرقُ هو أفظعُ الميتات التي يمكنُ تخيّلها، ناهيكِ بالحروقِ الجسدية فإنَّ الضَّحية سيختبر دمار النّهايات العصبيّةِ والجفاف وفشل الأعضاء الحيويّة وستكونُ الأبخرة الحارة قادرةً في مرحلةٍ ما على إتلافِ جهازهِ التنفّسيّ، ضحايا الاحتراق غالباً ما يموتونَ اختناقاً بأوّل أوكسيد الكربون... ربّما ولهذا العذابِ المريرِ تحديداً يرمزُ لجهنَّم في كثيرٍ من الدّيانات بالنّيرانِ الملتهبةِ المتَظِرَة.

تحدَّثنا طويلاً بحيثُ لَمْ أشعر بأنَّ عقارِبَ ساعتي قد تحرَّكَتْ، بدا لي أنَّ الوقتَ لَمْ يَمُرَّ علينا، ثمَّةَ شيءٌ ما بزغَ في روحي ونما سريعاً، غطّاها برقَّةٍ كاللبلاب، فاكتستْ فجأةً فرحاً وسخونةً، روى لي الرَّجلُ الذي لم أعرف اسمهُ تفاصيل حياتهِ، مع كلِّ كلمةٍ كنتُ أزدادُ دُنُوّاً منهُ، لم يحدث من قبل أن اقتربتُ من أحدٍ... أيِّ أحدٍ... كلَّ ذلكَ الاقتراب، كنتُ أتظاهرُ بالإصغاءِ إليهِ فيما عيناي تتفحَّصانهِ بعمقٍ، غرقنا في ضحكٍ طويلٍ لأسبابٍ تافهةٍ، تتحوَّلُ

البهجةُ أحياناً إلى أرضٍ توطأ بالأقدام، حيِّزٍ بأبعادٍ حقيقيَّةٍ، حيِّزٍ غير مرئيٍّ ولكنَّهُ ملموسٌ في مكانكِ أنْ تجلسَ فيهِ وتستلقي وتَدُّقَ مسماراً في جدرانهِ أيضاً، دمدمتُ بصوتٍ مُتَقَطِّعٍ:

«يا إلهي لم أضحك هكذا من قبل»، تبدَّلتْ ملامحهُ فجأة واكتسَتْ هَمَّاً ورصانةً، تراجَعَ عن بسمَتِهِ، قالَ مغتَمّاً: **«أنا أيضاً أضحكُ للمرَّةِ الأولى»**، حملقَ فيَّ... كأنْ في صميمي، التمعتْ عيناهُ بحدَّةٍ، تخامَدَتْ ضحكتي، اختنقتْ، تذكَّرتُ وصايا أُمّي النّمشاء وهي تشبِّهُ سمعةَ البنتِ بالزُّجاج، حديثٌ حارٌ مع غريبٍ قدْ يُهشّمُّ البلُّورَ كُلَّهُ، ماتت والدتي قبلَ أنْ تُدْرِكَ أنَّ السُّمعةَ في المجتمعات المحمومة اجتماعيّاً لا علاقة لها بالحقيقة والنيّاتِ والأخلاق وإنَّما محكومةٌ بسلامةِ حواسِّ الآخرين، التقتْ شهقتي تنهيدتَهُ، التفَتَ إليَّ يَسْأَلُني: **«كيفَ حالُ المدينة؟»**، زممتُ كتفيّ أستوضِح، نظرتُ حولي مدهوشةً، إذْ كيفَ يسألُ عنْ مكانٍ يقطُنُهُ، لكنّي لَمْ أَتَبَيَّنْ شيئاً، لَمْ أفهم كيفَ ابتلَعَتِ الظُّلْمَةُ التفاصيلَ حولنا والمساءُ لا يزالُ في أَوَّلِهِ، بدا لي أنَّنا الوحيدانِ المشمولانِ بضوءٍ كشّافٍ أقربَ لأضواءِ المسارحِ، حَاوَلْتُ أنْ استجمعَ طاقتي وأُخَمِّنَ ما سيتلو سكوتي، حسناً

«ســ... ســـيمســ.... مستحيل... سيمسكُ يدي ويشدُّها»، ارتجفتُ من هولِ الفكرة، الأفكارُ مرايا الرَّغبات، وأنا لاشكَّ قَدْ مَسَّني خبلٌ، سَكَبَ كَلِماتِهِ برفقٍ في أُذُنيَّ: **«هل كانَ سؤالاً صعباً؟ طيّب لا عليكِ... سُحقاً للمدينة»**، أحسَسْتُ أنَّهُ لاحظَ الخفقانَ العنيفَ في صدري، اضطّربتُ، سَعلتُ، غيرَ أنّي سُعْدْتُ بتكذيبهِ حدسي، سألتُهُ عنْ الوقتِ فأشارَ لمعصمهِ الخالي مُردفاً: **«وجوّالي أيضاً ليسَ معي»**، فركَ راحتَيهِ إحداهما بالأخرى، سألَ وهو ينفخُ بينهما: **«ألا تشعرينَ بالبرد؟»**، أجبتُ ونظري مُعَلَّقٌ في العتمةِ الطَّارئةِ: **«بلى... تغَيَّرَ الطَّقسُ فجأةً»**، تلمَّسَ بأذْنِهِ صوتي المتهدِّج، سوَّيتُ الوشاحَ المتهدِّلَ حولَ رقبتي بيدي، لَمْ أنتَبِه إلى الأصابعِ وهي تَسْحَبُ يدي الأخرى، شاهدتها فجأةً تضُمُّها، تعتصرُها كأنَّما لترشقَ كلَّ خليَّةٍ بقبلةٍ، تندَّى قلبي النَّاشف، تأجَّجَ فرحي، وسَرَتْ قشعريرةٌ عاصفةٌ في روحي، احتَقَنَ وجهي، شَلَّ جَسَدي وصارَ كُلِّي وهلةً يدي، ما اعتقدت أنّه سيحصل ما قد حصل، هَمَسَ مُستَردّاً كفَّهُ: **«لا علاقةَ للبردِ بالطَّقسِ»**، لَمْ أُعلِّق، أصابعي كانَتْ تتألَّمُ إثرَ تحَرُّرِها، ابتلَعتُ الغصَّةُ في حنجرتي ورسَمتُ ابتسامةً خفيفةً، تظاهرَ بأنَّهُ

لَمْ يلمح دمعي الحبيس، أردفَ: **«هكذا تضيعُ الحياة... نُغْلقُ النّوافذ... نوقدُ المدفأة... وننزلقُ في الملاءاتِ الوثيرةِ... ثمَّ ننتَحِبُ حينما لا ننالُ دفئاً»**، رمقتهُ بنظرةٍ خاطفةٍ وقرَّرْتُ الانصراف، لكنّهُ همهمَ قبلي: **«الوضعُ الآنَ آمنٌ في إمكانكِ الخروج ولكن احذري... عليَّ الذّهابُ... سُرِرْتُ بلقائكِ»**، لمْ أستوعِبْ كلماتِهِ، هبَّ الرّجاءُ في مقلتيَّ، شيّعتُهُ بنظراتٍ راعفةٍ ولكنَّهُ لمْ ينطق بأكثر من ابتسامةٍ...

ودَّعني بهزَّةِ رأسٍ، فانقبضَ قلبي، وددتُ لو تمسَّكتُ بطرفِ معطفهِ، لو هتَفتُ: **«ابقَ»**، قاومتُ ذلكَ الخجلَ اللعينَ الذي يسرقُ السَّعاداتِ الحقيقيّة، ذلكَ الإحساسَ الفظيعَ بالذّنبِ.... ذلكَ التَّريثَ القاتل، لكن عبثاً، دوّى وقعُ قدميهِ في براحِ صمتي، شعرتُ من حرقتي بأنَّهُ لا يمشي... بل يطفو، غادرَ المكانَ قبلي، ارتقى درجاً لمْ أتمكَّنْ من رؤيته، وفي أعلاهُ انفرَطَ جسَدُهُ إلى تكويناتٍ ضوئيّةٍ غايةٍ في الدِّقة، تفَتَّتَ، تبعثَرَ، تبَدَّدَ، مخلّفاً وراءَهُ بقعةً من الألوانِ الذَّائبةِ، غمرني ألمٌ عميقٌ، خشوعٌ، رهبةٌ، فركتُ جبهتي لأوقفَ الهذيانَ الذي أطبقَ عليَّ، **«هل كانَ حلُمَاً؟»**، **«وهل سأتمكَّنُ بيسرٍ من الفكاكِ من فورةِ تلكَ المشاعرِ**

وذلكَ اللّقاءِ؟»، سرتُ بلا خوفٍ، بلا أُمنياتٍ، بدا المحيطُ حولي موحشاً من جديدٍ**...** خاوياً**...** مُتْعِبَاً، أشعرني فراقُهُ بأنِّي في خلاءٍ لَمْ أَدُسْهُ مِنْ قبل، هرولتُ مبتعدةً مخلِّفةً ورائي بقعةً متلألئةً من البهجة**.**

بَدَتْ لي البيوتُ مألوفةً، تشبهُ كثيراً منازل الحيِّ الذي أقطنُ فيهِ، أفاريزُ النَّوافذِ ذاتها، طلاءُ الأبنيةِ عينه، ولكنَّ فيها شيئاً ما مختلفاً لم أُدرك كُنهه، شعرتُ بأنّني في عالمٍ مُوازٍ، خُضْتُ في الأزقَّةِ الملتويةِ، انعطَفْتُ معها، لَمْ أَنْتَبِه كيفَ بلغتُ بابَ البيت، الأقدامُ كائناتٌ خرقاء لا تغويها القيادة، قد تتبعُ الأنفَ أو الأذنَ أو العينَ أو الرّئةَ أيضاً**...** في حالِ انشغَلَ العقلُ عنها**.** كانَ هنالكَ إنارةٌ مُلَوَّنةٌ تشعُّ من الدَّاخل، دنوتُ مِنَ النَّافذة، فلاحتْ لي البالوناتُ المنفوخة، وقَالبُ حلوى بثلاثِ طبقاتٍ وشموعٍ ذائبةٍ، وكومةٌ صغيرةٌ منَ الهدايا، وامرأةٌ تشبِهُ أُمّي تمشي بتوتُّرٍ وتراقبُ السَّاعة، ورجلٌ يشبهُ أبي يوقدُ الشَّمعَ كلَّما انطفأ، كانَ هنالَكَ احتفالٌ افتراضيٌّ بأشياءٍ لم تحدث، سالَ قلبي منْ ثقبٍ وهميٍّ في صدري، استَدَرتُ، تملَّيتُ الهلالَ الذي لمْ يُرْسِلْ لي أيَ تلميحٍ، طَرَقْتُ البابَ لكنْ لَمْ يَصْدُر صوتٌ، لم يكن ليدي كتلةٌ أو وزنٌ أو أيُّ

وجودٍ مادّيّ، انتبَهتُ إلى أنّي أُشعُّ، بدا لي أنَّ نوراً يقطرُ من كُمَّيَّ، وأنَّ الفرَحَ يهمي منّي كندفِ الثَّلج، اتخذتُ القرارَ و أنا أبتعدُ:

«البيتُ أبْعَدُ... وهذهِ السيِّدة الدافئة ذاتُ النَّمشِ ليستْ أُمّي... أُمّي أنا ماتتْ»

عدتُ أدراجي، رافَقْتُ سربَ نملٍ آخر ووثقتُ بأقدامِهِ... الأقدام كائنات ذكيّة وساحرة.

الفارس والعصفورة

مُنكَبٌّ على الجَوَّال، الإبهامانِ يَشْتَغِلانِ، يتابعان، يتنقَّلان، يُقلِّبَانِ الصُّورَ في صفحةِ الحوادثِ.

في تلكَ اللّيلة لم يكن أبو فارس يَقرأُ الأخبارَ، كانَ ساهماً على غيرِ عادتهِ في ستائرِ الكلماتِ، تنسدلُ تباعاً إحداها فوق الأخرى، يراقبُ فحسب، يُخطِّطُ فحسب، يُفَكِّرُ مَليّاً في قتلِ زوجَتهِ...

أبو فارس المواطنُ الصَّالحُ... البسيطُ... المشبَّعُ حتّى النخاعِ بالأخلاقِ الحميدةِ، والذي لم يحدثْ طوالَ أعوامهِ السّتين أن آذى نملةً تُرَاودُهُ اليومَ أفكارُ الشَّياطينِ. خلفَ الشَّاشةِ المُضَاءَةِ تهتَزُّ سورية... تغلي كما البركان، وأبو فارس قابعٌ في الظّل، ينتظرُ فَرَجاً من الغَيبِ، يُتابعُ ما يُكْتَبُ كلَّ يوم، بدءاً من «صباح الخير متابعينا الأعزّاء»، وانتهاءً بأخبارِ السَّلبِ والنَّهبِ والاختطافِ والاغتصابِ والسَّرقةِ والتّعذيبِ والتَّرهيبِ والفسادِ....

«يا أولاد الحرام أينَ كُنتمْ؟» يسألُ مُهتاجاً ككلِّ النَّاسِ، يكتبُ «تمَّ» ككلِّ النَّاسِ، ويعتقدُ مثلهُم أنَّه أفضلُ حالاً. بضعةُ

أشهرٍ مَضَتْ على تركِهِ لوظيفَتِهِ في البلديّةِ، أعوامٌ طويلةٌ أمضاها يجمعُ نفاياتِ النَّاس وأوساخهم، ولكنَّه تقَاعَدَ فجأةً، فذوى، واحدودبَ، وأمسى حبيساً للهاتفِ السَّاحرِ حيثُ العامُّ يبتلعُ الخاصّ والعباراتُ القصيرةُ تؤتمِتُ أدمغَةَ الجميع.

حتّى صباح البارحة كان أقصى أمانيهِ مقلى كشك... فجلةٌ كبيرةٌ ورغيفُ خبزٍ ساخنٌ، في صباحِ هذا اليوم تغيَّرَ كُلُّ شيءٍ مذ عَثَرَ في بَرْطَمَانِ البرغل المركون بزاويةِ السَّقيفة على القنبلة، تلكَ التي أخفاها فارس قبلَ أن يقضي ذبحاً في مكانٍ ما من البلادِ الواسعة.

انتفضَ العجوزُ أوَّلَ الأمر، أمَضَّهُ جلدهُ، ارتبَكَ، اختلجَ، ابتعدَ، اقتربَ، ثمَّ غرقَ دفعةً واحدةً في قهقهةٍ هيستيريَّةٍ غير نهائيّةٍ... فقد كانت القنبلةُ أهمَّ وأثمنَ ما وقعَ عليهِ في حياتهِ كُلِّها...

في أوَّلِ عشرِ دقائقَ تساءلَ عن كيفيّةِ التَّخلُّصِ منها، في الدَّقيقةِ الحاديةَ عشرةَ كانَ يُفكّرُ في قتلِ أحدٍ ما.... عصفورة مثلاً، بَلَغَتْ بهِ الخيالاتُ أنَّ تخيَّلَ لحمها يَتمَزَّق، يتشظَّى وكأنَّهُ لم يكن، هُيِّئ إليهِ أنَّهُ يرى أرياشها الخفيفة تنتثرُ في كلِّ مكانٍ، تناسى الصُّورَ الصبيانيَّةَ هنيهةً، تشاغَلَ، جَلَبَ على غيرِ عادَتِهِ عُدّةَ الحلاقة، فردها قدّامهُ، فصرخَ نظيرُهُ في المرآة:

«طيّب لماذا عصفورة يا أخي؟؟... اقتلِ كلبَ الحراسَة في منزلِ الأستاذِ سالم، ألم يَبصُق في وجهِكَ لأنّكَ لم تَطْرُق بابَ مكتَبِهِ قَبْلَ دُخولِك، كنتَ ظاهريّاً موظَّفَ دولةٍ وكانَ ظاهريّاً مسؤولاً فيها، في الحقيقة لم تَكُنْ أكثَرَ مِن جُرَذٍ في مزرعتِهِ الشَّخصيّة، طيّب يا أبا فارس اقتُلِ الأستاذَ سالِماً نَفْسه وأرح النّاسَ من سرقاتِهِ ومن صَلْعَتِهِ ومن توقيعِهِ الشَّهيرِ يخوضُ بِهِ كلَّ يومٍ مزاداً جديداً».

اقتلْ حَمَدَ مُهَرِّبَ المازوت وتاجرَ الممنوعات، اقتلْ حسَّان كتَّاب التقارير، اقتلِ في المؤسَّسات من يمتلكونَ كاريزما القيادة ودهاءَ قطّاع الطّرق، اقتلْ لصوصَ الأرض... تُجَّار الدَّم....

وانتثرَ الدَّم... على المرآةِ... على الأرضِ... على ثيابِهِ، عقَّمَ أبو فارس عظمَ خدَّيهِ بمطهِّرِ الجروح، وحَسَبَها من جديد:

«يا أخي هؤلاء أقوياء... مدعومون، إن ماتَ أحدُهُم نبَتَ كالفطرِ غيرُهُ، أمَّا أنا إنْ أُعدِمْتُ فلمَنْ تبقى من بعدي أمُّ فارس؟».

عندَ المساءِ كانَ الرَّجُلُ قد قَرَّر:

«أحبَّاؤنا قيودنا الحقيقيّة لا أعداؤنا.... لأجلِهِمْ نخافُ ونخضَعُ ونَقْبَلُ كُلَّ يومٍ أن نُذَلَّ.... سأقتلُ الليلةَ أمّ فارس».

أطفَأ الجوَّال، فانعكَسَ وجههُ المشَوَّهُ فوقَ الشَّاشةِ المكسورةِ، تساءلَ كمنْ يحاجُّ نَفْسَهُ:

«هل سيعاقبني الرَّبُّ؟»

ثمَّ استدركَ مطمئنّاً:

«وعلامَ يعَاقبني؟.... ليسَ ثمَّةَ فارقٌ كبيرٌ بينَ المُنْتَظِرِ موتاً وبين الميّت، أمُّ فارس تأخذُ الحياةَ بجدّيَّةٍ أكثرَ مِمَّا ينبغي، إنَّها تعاني... تتوجَّع... تمشي عجلاتُ الموتِ على جسدها ذهاباً إياباً ألفَ مرَّةٍ، إنّها تعوقني عن رجولتي... عن إقدامي... عن حرّيتي... عنْ كلمة الحقِّ وخيمةِ العواقب، بغمضةِ عينٍ أُرسلها إلى الجنّةِ، بغمضَةِ عينٍ أَخرجُ من هذا الضَّعيفِ الذَّميمِ الذي أصبحتُهُ» .

انقَلَبَتْ ملامحُ وجههُ فجأةً إلى نقمةٍ واشمئزازٍ، حَكَّ ذقْنَهُ بظَهْرِ كفِّهِ، أغمضَ عينيهِ مُوغلاً في تَصَوُّراتِهِ:

«حينما تغفو أُفجِّرُ غُرفَتَها، فتختَفي معها ألبوماتُ الصُّوَرِ، ذكرياتُنا العزيزةُ... تختفي ثيابُ فارس وأحذيتُهُ وأعقابُ سجائرِهِ التّي لَمَّتْها بتأنٍّ من الزُّقاقِ القريبِ ».

قامَ يجولُ في أنحاءِ البيتِ للمرَّةِ الأخيرةِ، أطفَأَ الأنوارَ واحداً تلوَ الآخر، عندما جاوَرَها لَمَعَ ضوءٌ خفيفٌ من العدَم، انعكَسَ

وهجهُ على ملامحها، بدَتْ لهُ جثَّةً ممدَّدةً في الفراغِ، بسطَ راحَتَهُ فوقَ شَعرِها المُتَمَوِّجِ، الضَّاجُّ بالصُّورِ البعيدةِ، تراءَتْ في عتمتهِ حياةٌ أُخرى، تلَمَّسَهُ بحذرٍ، فتدحرجَتْ حبَّاتُ العرقِ عن جبينهِ، تَحَسَّسَ مضطرباً وجهها... شفتيها الدَّقيقتينِ... وحاجبيها الباهتينِ... وخدَّيها المترهّلينِ، كانَ شاحِبَاً بملمسِ الثَّلجِ، منهكاً، بشِعَاً على غيرِ عادتهِ وحزيناً، أمَّ فارس اللَّماحة مخلوقةٌ في منتهى الحنانِ والكياسةِ، إنَّها حُبُّ حياتِهِ والحلمُ الوحيدُ الذي تَحَقَّقَ... تُرى هل تَقْرَأُ في الغَفْوَةِ أفكارَهُ؟.... هل تعلمُ عيناها أيَّ سوادٍ تنتظران؟، استردَّ يدَهُ، ابتعدَ، فلمْ يلمحِ الدَّمعةَ السَّافرةَ وهي تنحدرُ ببطءٍ من العينِ المغمضةِ.

*   *   *

أقْعَدَها الكَمَدُ بَعْدَ فراقِ وحيدِها، وشَلَّتْ النَّكَباتُ لسانَها واحدةً تلو الأُخرى، باتتْ جسداً ملقىً على سريرٍ، يُقَلِّبُهُ الزَّوجُ كي لا يتَعَفَّن، يحافِظُ كالممرّضاتِ الجيِّداتِ على نظَافَتِهِ، يُقَشِّرُ لها برتقالةً كلَّ صباحٍ، يَلوي مصّاصَةَ «المتّة» لتتمكّنَ من شُرْبَها معه، يشربان.... يثملانِ بماءِ الأعشابِ والذّكريات، يُحَدِّثُها عن الماضي السَّعيد، عن رائحةِ الطَّبيخِ الزَّكيّة وقتَ كانتْ تفوحُ في جنباتِ البيتِ، عن البيتِ

الذي شيَّداهُ قشَّةً قشّة، عن ذكرياتِ الحصادِ أيّامَ كانَ يقوِّسُ ظهرهُ حاملاً فوقَهُ أكوامَ السَّنابلِ ليُمَكِّنها من امتطاءِ ظهرِ الدَّابّةِ، يحكي لها إلى أنْ يشتَعلَ قلبُهُ وتَدْمَعَ عيناها الغائرتان، يفتَرِسُ الشّجنُ صوتَهُ، تقضمُ الرَّجفةُ أصابعهُ، وتسري المرارةُ كالبردِ في أوصالِهِ، تطرقُ هي، تتنهَّدُ، وتُشيرُ برأسِها في تلَهُّفٍ إلى المزيد.

لم يشتكِ يوماً، لم يكلّ أو يتعَبْ، ولم يسبق له أن اعترَضَ على قَدَرِهِ ولكن... أيَّ سفّاحٍ أخرجَتْ منهُ القُنبلة....!!!!

* * *

في صباحِ اليومِ التَّالي كانَتِ الصَّفَحَاتُ الإخباريَّةُ الالكترونيّة تَعْرِضُ «لقْطَةُ الصَّباح»...

عجوزٌ يتَمَدَّدُ في الزّبالةِ بَعْدَ أن ماتَتْ زوجَتَهُ ليلاً بسكتةٍ قلبيّةٍ، اختَلَفَتِ التعليقات وطالَت وراوحَت بين:

- تمَّ
- هذا هو الإخلاص
- خائفٌ من الجوع إلى حدِّ احتضانهِ للبرطمان

- تم
- إنَّهُ القهر
- قتلتهُ الحربُ وهو حيّ...
- تمَّ
- تمَّ
- يا جماعة هذا زبّال حارتنا... اشتاقَ إلى الحاوية
- تمَّ
- هههههه
- لا حول ولا قوّةَ إلّا بالله أينَ أولادُ الرَّجل؟
- تمَّ
- تمَّ
- تمَّ
- تمَّ

النَّاسُ المُنكَبُّونَ على جوَّالاتِهم.... ما زالوا يُعَلِّقون.... يتأمَّلون... يخطِّطونَ وربّما يفكّرونَ بقتلِ أحدٍ ما.... عصفورةٍ مثلاً.

نارٌ صغيرةٌ

البلدةُ تحترق، والمخطَّطُ يسري تماماً كما رسمتُ، اللَّهبُ البعيدُ يُرصِّعُ نوافذي بأقراصٍ من الوهجِ، فتشعُّ، وترتعشُ، فيما الهواءُ السَّاخنُ يزوبعُ في الأعلى دخاناً وطيوراً محروقةً.

يتناهى إليَّ صراخكم المُبهم، اصطخابكم الأخير، استغاثاتكم المفجوعة الحلوة...

«لن ينجو أحد» يُبشِّرني دهائي، يستطردُ كالسَّكران: «الخطّةُ محكمةٌ يا معلّم، وكلُّهم بإذنِ انتقامك إلى الجحيم»، يتولّاني القلقُ برهةً، ثمَّ يتلوهُ الأسى، لكنّي أتماسك، أسوقُ لنفسي أفعالكم، أُفصّلها في رأسي مشهداً مشهداً...

يا أولاد الـ... أنتم لا تعرفونَ كيفَ ينبغي أنْ تُصاغ المجتمعات، كيف لها أنْ تُبنى بالرّحمة، بقسوتكم خلقتم مسخاً على شاكلتي، ويومَ دفعتم أُمّي إلى الانتحار خلاصاً من ألسنتكم أوقدتم في نفسي ناراً صغيرةً، لم يحترق نصف وجهي بمغليِّ الحليبِ كما رَوَتْ جدّتي، وإنّما احترقَ ليُماثلَ قلبي، ليسودَّ مثلهُ، لم أبنِ بيتي بعيداً

عنكم لانخفاضِ التّكلفةِ كما أوهمتكم، وإنّما لأهرب...، خمّنتُ أنَّ في ابتعادي انعطافةً قد تعيدني إنساناً، فاعتدى أحدكم عليَّ بصفعةِ استقواءٍ، وخطفَ ثانٍ البنتَ التي أحببتها، وثالثٌ صمَّمَ نكاتهُ على مقاسِ تشوُّهي، ورابعٌ استنجدَ بالقانونِ ليسرقَ أرضي، فأنا مغفَّلٌ... والقانونُ لا يحميني، تأبَّطتُ صُرَّةَ ذكرياتي وابتعدتُ أكثر، إلّا أنَّ شيئاً لم يتغيَّر، سنواتٌ مرَّت وأنا المنبوذ... المسحوقُ... المغلوبُ على أمرهِ، ولأنَّ وجهاءكم غالباً ما يوزِّعونَ أوسمةَ المواطنة فقد عشتُ بينكم بلا انتماءٍ ولا احتواءٍ ولا وطن.

* * *

عملتُ في حقولكم بأجرٍ، وبلا أجرٍ جعلتُ أبتاعُ بما أجنيهِ غراسَ الصَّنوبر، أُسوِّرُ بها منازلكم، أُسيّجُ بها حدائقكم، فرحتم كثيراً بعطاءاتٍ من دون ثمنٍ، أسعدكم أنّي أسقيها بدموعِ عينيَّ، لم يلحظ أحدٌ شيطاني، لم يسمعهُ يوسوسُ لي أنْ أغرسَ لُغماً في كلِّ شبرٍ من أرضٍ قاحلةٍ جرداء، أدهشكم سحرُ الأخضر، ولكنَّ أحداً لم يلحظ يدي، لم يشكرها أو يودعها قرشاً أو كسرة خبزٍ، وحينَ بأصابعي حفرتُ ساقيةً تفصلُ داري عن أراضيكم، هلَّلتم لأنَّ أطفالكم لن يبلغوا رقعةَ المخبول، لم تفهموا أنَّ المخبولَ يحمي

نفسهُ ممّا خبّأهُ لكم، استمتعتم طويلاً بهبّاتِ النّسائمِ الرّطبةِ وبعبيرِ الأزهارِ البرّيّةِ وهي تبزغُ خلفَ خطواتي، ومع ذلك لم تبادلوني مرَّةً إيماءات التّحيّات، ولا كياستكم بشَّتْ لي لكأنّي لستُ من النّاس.

* * *

ها أنا الآن أحرقكم، بعودِ ثقابٍ، بآلافِ الأشجارِ التي زرعتها بيديَّ، أحرقكم وأتفرَّج، أتسمَّعُ على عويلكم، لا أرأف، لا أتعاطف، إذ لا رادّ لثأرٍ ليسَ يُنسى. بعتُ عمري لأتذوّقَ طعمَ هذا اليوم، لأتلذَّذ بدحرِ الظُّلم، لأكتب رسالةً لابني الذي لم يولد بعد: «يا ولد أحرقتهم لأردَّ الشّرّ».

اثنتان وعشرون دقيقةً مرَّت على قيامتكم، لكن مهلاً ما الذي يحدث في منزلي!، مخاريطُ الصَّنوبرِ أضحت قنابلَ، كلُّ شجرةٍ عندكم صارت منجنيقاً، شجركم يرشقُ جدراني، يرجُّها، يهزهزُ مع صلابتها صلابتي، ولي الآن أن أتخيَّلَ ما يحدثُ حولي، حرائقُ صغيرةٌ تشبُّ في كلِّ مكانٍ، ستتّحدُ بعدَ حينٍ، ستأتي على نصفِ وجهي الثّاني، على قلبي، على ورقٍ توجَّبَ عليَّ أن أكتبَ فيهِ: «كلّنا الشّرُّ يا ولد.... أحرقنا بعضنا البعض»، ها أنا أتعرَّق، جلدي يُشوى ولم تلمسهُ النَّارُ بعد، قلبي يرفرفُ مختلجاً،

وأعصابي تبلى بالتَّدريج، أخلعُ ثيابي، أنبطحُ أرضاً، تتفحَّمُ أطرافي ببطءٍ شديدٍ، وببطءٍ شديدٍ أُوزّعُ نظرةً أخيرةً على الأشياءِ من حولي، كلُّها متماسكةٌ، كلّها تتفرّجُ عليّ، لم تطل النّار بيتي أصلاً، لم أحترق بلهيبها كما تهيّأتُ، أتملّى جسمي المتفحّم، أطمئنُ قلبي: «يا قلبُ... اشتعلتُ بنارِ الوهمِ وحسب، لكنّهُ لا يردُّ أبداً، قلبي المغشيُّ عليه والذي تطاير من حولي كالصَّنوبر... واحترق».

سَقفُ الدَّهشَة

أوَّلَ مَرَّةٍ اعترَفْتُ لها بُحبِّي حَامَتْ بسمَةٌ طفيفةٌ حَوْلَ ثَغْرِهَا الورْدِيّ، لكِنَّها انحسَرَتْ حينَما دمْدَمْتُ:

«وسأتَزَوَّجُكِ أيضاً»

اختَلَجْتُ إزاءَ نَظْرَتِها على نَحْوٍ مُدَوٍّ، تواثَبَتْ نبضاتي نحو عينيها الواسعتين، ونزَّ العَرَقُ مِنْ مَسَامَاتي أجْمَعِها، أرْدَفْتُ وأنا أُنَشِّفُ وجهي بمعصمي:

«ليسَ الآنَ بالتَّأكيد... حينما أَكبرُ على الأقَل»

طيَّرَتِ النَّسمةُ الرَّاعشةُ قُبَّعتَهَا القش، خَفَقَتْ في لفائفِ شَعْرِها، وهفهفتْ بسلاسةٍ في ثوبها اللّامع، في قلبي تَدَفَّقَتْ نظْرَتُها ريحاً اقتَلَعَتْ كلَّ شيءٍ، كانَ صمتُها مريحاً إلى حدٍّ أنَّني تقافَزتُ حولها في غبطةٍ كذكَرِ الماعزِ. في مساءِ ذلكَ اليوم كنتُ أنا وهي ننقشُ اسمَيْنا على جذعِ شجرةٍ معوجَّةٍ، فوق قمَّتها سحابٌ هفٌّ يتجمَّعُ كلَّ حينٍ ليتمزَّق من جديدٍ، وفوق رأسَيْنا سماءٌ مِنَ الحفيفِ والزَّقزقة، قضينا تحتها جُلَّ النهار، إلى أن لمعَ في ذهني

وجهُ والدتي، فهرعتُ أركضُ ويدها في يدي، تتعثَّرُ ورائي ولا تكفُّ عن الضّحك، حينَ وصلتُ استقبَلَتني رائحةُ أُمِّي، نفَضَتِ التَّرابَ عن ثوبي، أنَّبتني لتأخُّري، ثُمَّ عانقتني وأوصتني بالاغتسال، ولم أكد أديرُ ظهري حتَّى غافَلَني الفوحُ العذبُ، عادَ أدراجَهُ إلى صورتها المهتَزَّة على الجدار فيما السُّكونُ يلفُّ المنزلَ كعادته، أنا أيضاً غافَلْتُهُ، هبطتُ على درجٍ نحو القبو، فتحتُ بابَ الخزانةِ الخشبيّةِ الممتدَّةِ على كاملِ الحائطِ، فبانوا جميعاً، طوالاً وقصاراً، نساءً ورجالاً، مضحكينَ وراعبينَ، بانت معهم الحليُّ اللّامعةُ والثِّيابُ المزوَّقة، كانوا يتظاهرونَ بالنَّومِ تماماً كما تظاهروا بالاستيقاظِ حينما دفعتهم جانباً، حشرتُ بعضَهم ببعضٍ، لأُفسحَ لها متَّسعاً بينهم، أجْلَسْتُها كما يمنحُ الوالدُ ابنتَهُ وضعيَّةً تجعلُها أميرةً في الصُّورة. ارتقيتُ الدَّرجَ ثانيةً، ببطءٍ، بغضبٍ، تصاعدتِ الفكرةُ معي **«ماذا لو اختطفْتُها لتنامَ معي؟»**، تَبِعَتْها على الفور الفكرةُ الأُخرى **«صباحاً يا فهيم سيمتلِئُ السَّريرُ حولكما بالأطفالِ الخُدَّجِ»**، **«الصّبيان يشبهونني والبنات يشبهونها؟»**، تقمَّصَتِ الفكرةُ الأُخرى صوتَ أبي وزجرتني: **«اُسكتْ يا وقح»**.

قبَّلتُ الصُّورةَ الشَّاحبةَ، حدَّقَتْ إليَّ بعمقٍ، احتقَنَ وجهي في بؤبؤيها الضَّيقين، برقَ فيهما نثاراً من وهجٍ، فالصُّورُ عادةً لا تستطيعُ البكاء، مكثتُ قبالتَها طويلاً، وأزلتُ عن زاويتها القماشةَ السوداء، تلكَ التي يعيدها أبي كلَّ ليلةٍ ليُذَكِّرَ نفسَهُ بأنَّها ماتت.

على السَّريرِ ارتميتُ متَّسخاً، فأسرعَ العبيرُ يهدهدني، امتصَّني الوسنُ حتَّى آخري فاحتشدتْ مأكولاتُ أمّي وثيابها المعطَّرَة وأدواتُ زينتها بالتَّرتيبِ على بطانةِ جفنيَّ، طَوَّقَتْ أشياؤها مناماتي، قبل منتصفِ الليل بقليل رجعَ أبي كعادته محدودبَ الظّهر وفي حلقهِ حبَّةُ دواءٍ، تجرَّعَ بمشقَّةٍ كوبَ ماءٍ، حكَّ ذقنهُ بساعدِهِ، تثاءبَ، تمطَّى، ثُمّ غطَّاني، دسَّ جسدهُ الهامدَ قربي، بعدَ أن نسيَ إصبعَ قدمي الصَّغير مرتجفاً، علا شخيرُهُ، لَمْ يَلْحَظْ قذارتي، لم يوقظني ليسألني أكنتُ أكلتُ، لم يمسح شعري أو يقبّلني، أبي لا يمسحُ شعري ولا يقبِّلني، ياسمينة تفعل، كنتُ أُراقِصُها جَذِلاً، أحتضنها كلَّما احتجتُ إلى عناقٍ، أقولُ لها تعالي نطيرْ وأرفرفُ بيديَّ ما استطَعت... وكنَّا بالفعلِ نرتفع.

في مدرسةِ الصبيانِ صرتُ مثاراً للتَّنَدُّر، فأنا الفتى الوحيدُ ربما في العالم كلّه الذي يقتني دميةً شقراء، كنتُ أصرخُ بهم:

«ياسمينة ليست دمية... ليست دمية... إنَّها ...»

لم أجرؤ على إخبارهم بالحقيقة كيفَ أشرحُ لهم أنَّها كائنٌ حيٌّ، وكيفُ أقنعُ كتابَ العلوم بأنَّها تتنفَّسُ مثلنا وتطرفُ بأجفانها وترقص وتشبهُ أُمّي و... تحبُّني. في عيدِ ميلادي تحيَّنُ تلامذةُ صفِّي الفرصة، أهدوا إليَّ مشطاً ورديّاً وشرائطَ شَعْرٍ حريريّةً، حتَّى المعلمة ضَحِكَتْ معهم، انتابتني أحاسيسُ متضاربةٌ من المهانةِ والغضَب، صارَ وجهي ثمرَة شوندرٍ، ذبتُ بالكاملِ في ردائي، كانتْ تلكَ ثاني ندبةٍ تظهرُ في روحي بَعْدَ يُتْمي، وأوَّلَ ترهيبٍ حقيقيٍّ يقهرني، إنَّها البذرةُ الأصليةُ التي خَرَجَ منها الإرهابُ إلى العالم... «نبذُ المُخْتَلِف».

* * *

مساءَ الاثنين التهبتِ السَّماءُ فوقنا بالألعابِ النّاريّة، كانتْ فظيعةً جدَّاً، حتّى أنَّها دمّرتِ بيتَ الجيرانِ وشظَّتْ زجاجَ نوافذنا، قَفَّ شَعْري فَزَعَاً، حملني أبي وركضَ لاهثاً نحو القبو، وأنا حملتُ ياسمينة وركضتُ بها في صدرِ أبي، هنالكَ استقبلتنا دُمى «الماريونيت» بحبالها المتهدِّلة وأسلاكها المشدودة، جلستُ أنا وصديقتي متلاصِقَيْن، كتلةً متَّحدَةً من اللحم والقماشِ

المحشوِّ والأحلامِ الوثيرةِ، رحنا نصغي إلى خطواتِ والدي المتخبِّطة، والدي الذي لا يخاف كانَ يدورُ حولي مشوَّشاً... مشتّتاً... متعرِّقاً... مستغرقاً في أفكارهِ السِّرّيّة، حتَّى أنَّهُ جرجرَ نفسهُ نحوي، ربَّتَ على رأسي وقبَّلني من دونِ أنْ يلحظ، شعرتُ لحظتها أنَّ غاز النيون قد انسربَ من المصباح وانضغَطَ في قلبي، أَوَّلَ مرَّةٍ وجدْتني غيرَ مهتمٍّ بمعرفَةِ السَّبب وأنا المختصُّ بالتنقيبِ في الدَّوافعِ والخلفيَّاتِ، هَمَسَتْ ياسمينةُ بصوتِ أمِّي مثلما يستخدمُ ضميري غالباً نبرةَ أبي:

«أنتَ تُضيء»

رفَعْتُ سبَّابتي في وجهها:

«اشششش... اسمعي»

التَفتَتْ مثلي إلى الماردِ الضَّئيلِ ذي الشَّاربِ الذي وثَبَ فجأةً من الخزانة، جالَ بصري بحثاً عنْ أبي فلمْ أجدهُ، وقفَ الماردُ أمامَ كومةٍ منَ الصَّناديق، تأمَّلَنا بِحبٍّ وهزَّ رأسَهُ هاتِفاً:

- كيفَ حالُ الصِّغار؟

- لسنا صغاراً

- هل أنتما خائفان

- لا

- جئتُ لأُحقِّق أمانيكما

- لا نريد

- مهما كانتْ مستحيلة

- لا نريد

- أووووف... لا يوجدُ طفلٌ لا يرغبُ في ذلك

- لأنّهُ لا يوجد مارد يحقِّقُ ذلك

- ولكن لديّ عصا سحريّة... انظر كم تبدو لامعة... عليها خرزةٌ كبيرةٌ و...

- العصيُّ... عصيّ... لا أكثَر

- عظيم... أنتَ ذكيٌّ لأنَّكَ تعلمُ أنْ لاشيءَ في الدُّنيا يُحقِّقُ المستحيلات بالمجّان

- وأنتَ لستَ كذلك لأنَّكَ لا تعلمُ أنَّ المستحيلات تتحقَّق... وبالمجَّان...

هَمَدَ المارِدُ فجأةً، انكمَشَتْ عضَلاتُهُ البارزة، شَعَّتْ عيناهُ بالأسئلة، ثمَّ تدفَّقَ استهجانُهُ صوبي:

- كيف؟

- الفنون تفعل ذلك... الرّسم... الرَّقص... الغناء... الكتب، قالتْ أمّي إنَّ الخيال هو السّحر.

انبطَحَ الماردُ أرضاً كجيفةٍ، وصدرتْ منهُ أصواتُ انتحابٍ وبكاءٍ مرٍّ، بدأتْ رائحةُ البارود تتناهى إلينا إثر انفجارِ المفرقعات العجيبة في الأعلى، شعرتُ بأنَّ علينا أن نصمتْ لكيلا نستنشقها، شعرتُ أيضاً بأنّني أفتقدُ فطائرَ الزّعتر المحمّصة التي تعدّها والدتي، لو كانتْ تعلمُ الأمانَ الذي تمنحهُ فطائرها لما ماتت. ألصَقْتُ راحتي على أنفِ ياسمينة، وانكمشتُ على نفسي بوضعيّة الجنين، وهناك على البلاطِ الباردِ غفونا معاً.... وحلمنا معاً بأصابعِ أبي المتواري خلفَ كومةِ الصَّناديق.

صباح الثلاثاء باعَ أبي منصَّةَ عرضِ العرائس، ثمَّ العرائسَ نفسها من دونَ أنْ يُفلحَ في تخليصي «ياسمينة»، سألتُهُ محتجَّاً:

«و لماذا؟»

قالَ إنَّ روَّادَ مسرحهِ في تراجعٍ، كرّرتُ «لماذا» ثانيةً، فألمحَ إلى صليلِ الدَّبَّابةِ في الشَّارعِ، ثمَّ غَمغم بنبرةٍ متداعيةٍ:

- سأجدُ عملاً آخر، لا مالَ من دونَ عملٍ، لا طعامَ من دونَ مال.

- ولا حياة من دونَ طعام؟

أكَّدَ أبي أنْ لا أحدَ يموتُ من الجوع، لكنَّني شاهدتُ ولداً يتهاوى على ناصيةِ الشَّارع، ثمَّ اختفى في سيَّارةِ الإسعافِ، ثمَّ في باطنِ الأرضِ، الولدُ الذي لن يختفي من مخيِّلتي كانَ يلعقُ العرقَ في باطنِ كفِّهِ بعدَ أنْ ناولني برتقالةً سقَطَتْ منِّي، أبي غالباً ما يكذب، يقولُ أيضاً إنَّ أُمّي في السَّماء مع أنَّهُ يعرفُ أنَّها مُتَخشِّبةٌ كالمومياءِ في الصُّورة، يقولُ إنّي سأصبحُ مُهِمَّاً في المستقبل مع يقينه بأنّي أمقتُ المدرسة وأنّها تمقتني.

* * *

دقّتْ ساعةُ الحائطِ معلنةً انتصافَ اللّيل، لَمْ يَفْتَحْ البابَ أحدٌ، لَمْ يَدَثِّرني أحدٌ، أرجحَ الرَّقاصُ عينيَّ معهُ... ثُمَّ قلبي، سألتني ياسمينة التي نسِيَتْ نفسَها في سريري بملء صوتِها وبنظرةٍ شاردةٍ أمْيَلَ إلى تنهيدةٍ: **«هل ماتَ أبوك؟»**، عانقتها بجزعٍ، هصرتها بينَ ذراعيَّ،

وحدستُ في أنَّ الوقتَ النظاميَّ سيتوقّفُ عندَ تلكَ اللّحظة، سيختلُّ، سيتوحَّش.

بعد موتِ أبي اكتشفتُ أنَّ كلَّ شيءٍ حولنا يُلاقي حتفهُ بطريقةٍ ما، حتَّى النُّجومُ الثَّقيلة البعيدة قدْ تتهاوى شُهُبَاً في أيِّ وقتٍ، بدأتُ أكبر بطريقةٍ هيستيريَّةٍ، نُمُوِّي العقليّ والعاطفيّ فاقَ نضجي الجسدي بأضعافٍ، جَدِّي الذي اصطَحَبَني للعيشِ معهُ لاحظَ ذلك، ياسمينة أيضاً توقّفت عن الرّقص، عن الضَّحك، عن الكلام، شَعَرَت بأنِّي غيري، أنا أيضاً وعيتُ الحقيقةَ «أنْ تَكْبَرَ يعني أنْ تُصْبِحَ دُمْيَة»، صارَ لديَّ أقنعةُ تنكُّرٍ وهميّةٌ كالآخرين، راحتِ الأسلاكُ تنبتُ من راحتَيَّ، من كوعيَّ، من ركبتيَّ، من كاحليَّ، في الأعلى كانَتْ نهاياتها تتوزَّعُ بأناقةٍ على الجميع... جدّي... والمدرسة... والشَّارع... والتّلفاز... والأصدقاء... والأعداء، صارَ في مقدوري أَنْ أُبْصِرَ الأسلاكَ الشَّفّافةَ في أجسادِ غيري، حتّى الكبار يملكونَ مثلها لكن أثخن وأمتن، يُحَرَّكُونَ بالحبال ويُحَرِّكُونَ بالحبال، لقد اكتشَفتُ سريعاً أنَّ الكرةَ الأرضيَّةَ مسرحٌ كبيرٌ... وكذباتنا المنمَّقةَ هي السَّتائر...

راودتني أمِّي في الأحلام ووعدتْ أنَّها لن تتركني، أخبرتُ ياسمينة بذلك فلم تُعَلِّق، هَدَّدْتُها بما يُشْبِهُ الحمحمة بأنِّي سأرمي نفسي في البركةِ إن لم تتكلَّم، لكنَّها لم تأبه تركتني أذهب ببساطة، انفطَرَ قلبي، وأحسَسْتُ بالذُّلِ واليُتمِ، خاصَمتها أيَّاماً، غبتُ عنها، وحينما عدتُ لَمْ تكنْ حيثُ تركتها، بعدَ بحثٍ مضنٍ وجدتُ طاقيةَ القشِّ طافيةً وحْدَها على ماءِ البركة... ومنذُ ذلكَ الحينْ أُصبَحَتْ ياسمينة نسمةً نديَّةً تهبُّ كُلَّ فجرٍ مِنْ جذعِ شجرةٍ معوجَّةٍ.

* * *

لَمْ يكْذِبْ أبي في كُلِّ شيءٍ، فقد دَرَسْتُ بلا حُبٍّ... لكنّي دَرَسْتُ بالفعلِ، تعلَّمْتُ، اجْتَهَدْتُ، لمعَ اسمي في هندسةِ التَّحكُّمِ الآلي، برعتُ في الرِّياضياتِ... في الجبرِ والهندسةِ الفراغيّةِ لكنْ ما من نظريّةٍ استطاعتِ البَرْهَنَةَ على أنَّ الفتاةَ التي عشقتها والتي انتحرتْ لأجلي كانَتْ دميةً حقَّاً، سافَرْتُ للعمل إلى اليابان، البلدِ الذي شهدَ ثورةً «روبوتيَّةً» عَبَّدَتْ طريقها من الخيال العلمي إلى الواقع. في الأُسبوع الأوّل زرتُ المتحفَ الوطنيّ للعلوم النَّاشئة والابتكار «ميرايكان»، وهنالك التقيتُ المقدّمَ

التلفزيونيّ والفتاةَ ذاتَ الشَّعرِ الفاحمِ ومدبّرَ المنزلِ وآخرينَ مِمَّنْ تتماوجُ لمعةُ المعدنِ في أجسامهم.

في الفترات التَّالية ركّزتُ مجهودي على إتمامِ آليينَ لا يحاكونَ البشرَ فحسب وإنّما مزوَّدُونَ بالعواطف والانفعالات. ما حدَثَ لاحقاً كانَ مذهلاً، ومبشِّراً بالكثير، لقدْ طوَّرتُ العديدَ من النَّماذجِ، وتعاقَدْتُ مع شركاتٍ عالميَّةٍ مرموقةٍ.

لم يكذبْ أبي، كانَ يعلمُ مثلي أنَّ كلمة «روبوتَ» قد خَرَجَتْ من مسرحيّة التشيكيّ «كارل تشابيك» عام «١٩٢٠» حينما أطلقها على الآلات الحيّة في إشارةٍ إلى العمل الشّاقِّ، اشتَقَّها تحديداً من كلمةِ «سُخرة»، لم أُدرك أنَّني شخصيَّاً في طورِ التَّحوّل من دميةٍ إلى «ربوت»، لم أُدرك أنَّ أصعب ما يمكن أن أُواجهه على الإطلاق هو المحافظة على الإنسان فيَّ، أبي الذي لنْ يعلمَ أبداً أنّي مخترعٌ يعملُ في السُّخرةِ... لنْ يتمكَّنَ من إخباري بالسِّرِّ الذي أحيا دُمَاهُ... دُمَايَ أنا تمشي وتتحدَثُ وتعملُ وتفكّرُ وتتحرَّكُ كالجثث.

* * *

«حبيبته روبوت» هكذا قالَتِ الجريدةُ عنّي، وتابعَتْ في العمودِ الطَّويلِ:

«غوايتها من غواية الحلم وشكلها مطابقٌ لصبيّةٍ في صورةٍ عتيقةٍ، صَمَّم الآليَّةَ ليكونَ لها شكلُ حبيبتهِ، منحها اسمها، وقلبه، أمَّا هي فقد تركتْ له صورتها ورحلتْ» .

«كنتُ واثقاً بتزاوجِ البشر والرُّبوتات في نهايةِ المطاف» هَتَفَ زميلي الياباني وهو يرفعُ كأسهُ عالياً، أردفَ وهو يشربُ نخبَ إنجازي:

«تزوَّجها ولنْ تندَم... المتزوّجونَ روبوتات حقيقيةً أكثر من امرأتِكَ الآليّة بكثير»

أمَامَ زوّارِ المتحفِ، وبربطةِ عنقٍ لامعةٍ تأبَّطْتُ ذراعها، وتلقَّيتُ منها أوَّل كلمةٍ سجَّلتُها بصوتٍ أُنثويٍّ عميقٍ شبيهٍ إلى حدٍّ بعيدٍ بصوتِ أمّي:

«أُحبّك»

لم يزقزق قلبي، لم أرتفعْ، لكنَّي افترضتُ ذلكَ وقبَّلْتُ ظَهْرَ يدها اللّامع، كنتُ ألبَستُها فستاناً قصيراً بمربّعاتٍ حمراء

وأُخرى كحليَّة، اشتريتُ لها عطراً يشبهُ الرّعشة، حفَرتُ في وجنتها غمّازةً عميقةً، ودسستُ ما استطعتُ من سحرٍ في مقلتيها، كانَتْ تحدُوني رغبةٌ في خَلْقِ نَسْخَةٍ آدَميّةٍ من ياسمينة... ولو مِنْ معدن.

لمستها برفقٍ، جلتُ بنظري في حنايا جسمها، انهمرتْ مشاعرُ غريبةٌ من ذاكرتي بلا تفسيرٍ، خضْتُ معها الذّكرياتِ القديمةَ، انتحلتُ نفسي الطِّفلة... في المشاهد ذاتها... في التَّصابي ذاتهِ، ولكن هنالكُ أشياءٌ عصيَّةٌ على التّكرار... أنفاسُها مثلاً، ضِحكَتُها وقتَ ترنُّ في رأسي، الدّفء، الحماقاتُ اللّذيذة، والحزن الشهيّ حينما يسيلُ من زاوية عينِها.

لستُ مخبولاً، لكنّي واثقٌ بأنَّ ياسمينة حبيبتي سرٌّ كبيرٌ عصيٌّ على أيِّ تفسيرٍ رياضيٍّ، عاشَتْ معي أحلَكَ لحظاتِ حياتي مُتخفّيةً في جسدِ ياسمينة دمية «الماريونيت».

أنسَنتُ «الروبوت» لكني أنا من صرتُ آلياً، صوتُها بات أجوفَ وعيناها خاويتين، ياسمينة الآلية شرعت تحفرُ فيّ، تدوزنُ أمزجتي، تنبش قلبي، وتسحبُ جذورهُ، كلَّما لمحتُها أيقنتُ بأنَّها تشقُّ جرحاً لَمْ يلتئم، رحتُ أتخيّل فيها خسارَتي، تصميمها الذي أودعتُ فيهِ حفنةَ ذكرياتٍ بدأ دعابةً وانتهى انجازاً علمياً باهراً،

لكنَّه سرعانَ ما أضحى نزيفاً غير نهائيٍّ في قلبي. ذكّرتني «الآليّةُ» كلَّ لحظةٍ بأنَّ ياسمينة المترقرقة في روحي قد ماتت إلى الأبد، لقد شعرتُ بأنَّ هنالكَ رتوشاً أخيرةً قدْ خَذَلَتْني، ولمْ أنجحْ في ضبطها، رتوشاً تستلزمُ آلهةً لتمَسَّ بيُسرٍ سَقْفَ الدَّهشةِ فيها، فالآلهةُ وحدها مَنْ تتركُ حينما تعمل مقاديرَ الأشياءِ السَّاحرةِ... مجهولةً.

* * *

خلعَتُ معطفي الرجَّاليَّ الواسعَ، علَّقتُه على يدِها وكأنّها المشجب، جلستُ خلفَ طاولةِ الطّعامِ، أسندتُ فوقها مرفقيَّ، وفي بطاحِ راحتيَّ أسقطتُ رأسي، أسفلَ عينيَّ ابتلَّ الغطاءُ القماشيُّ المورَّد بماءٍ كأنَّهُ النَّدى... نقطةً... نقطةً، رفَعتُ رأسي، تملّيتها بمرارةٍ، صرختُ بنبرةٍ مخنوقةٍ:

«ألا تستطيعينَ أنْ تُطَوِّقي عنقي بيديكِ من دونَ أمرٍ منّي؟، ألا يمكنكُ الإتيانُ بلمعةٍ إضافيّةٍ في العينينِ بلا برامجَ وإيحاءاتٍ وقذارة؟ ألا تقدرينَ على تمثيلِ العشقِ من دون هذا البرود القاتل أيتها الآلة؟، ردّي أيّتها الآلة... ردّي... ردّي»

تطلَّعَتُ في مجهولٍ بعيدٍ معتصراً ما تبقَّى منْ كلامٍ:

«ماذا فعلتُ بنفسي يا ربِّ قُلِّي؟... كلُّ شَبهٍ بينهما باتَ جرحاً، ذكراها التي كانتْ خُبزي تأكلني الآن، شوَّهتُها وشوَّهتْني، فهل من تكفيرٍ، أجبني أنتَ يا ربِّ أتقبلُ التكفير؟».

وفجأةً ابتلَّتْ عيناها، لمعَ فيهمَا ألمٌ طاغٍ، وتلألأتْ غلالةٌ رقيقةٌ، لمحتُ دمعةً تنحدرُ ببطءٍ على سَفْحِ خدّها، زممتُ عينيَّ، تعجّبتُ، فكَّرتُ، استذكرتُ، ثمَّ قرَّبتُ أصابعي كأغصانِ شجرةٍ معوجَّةٍ لأستوثقَ من حقيقةِ القطرةِ الشَّاذةِ عن كلِّ ما زوَّدتُها بهِ من برامجَ، مَسَّتْ يدي وجنتَها، ارتَجَفَتْ، ارتَجَفْتُ، تفتَّحَتْ بسمةٌ في ثغرها التمثاليّ، وفي منتهى الهدوء راحَ المعدنُ يسخنُ ويكتسي لوناً قمحياً متحوِّلاً شيئاً فشيئاً إلى لحمٍ.

رُهاب

هيَّأ الخلفيّةَ ورائي، دفعَ كتفيَّ برفقٍ إلى أعلى، حَرَفَ وجهي بزاويةٍ طفيفةٍ، ثبّتني وكأنّي تمثالٌ عديمُ الوزن، ثمَّ خطا إلى الخلفِ محافظاً على تقوّسِ ظهره، حدَّقَ مطوّلاً إلى نظرتي الكابية بحثاً عن شيءٍ ما، رفعَ حاجبهُ بإشارةٍ ملغَّزةٍ، ثمَّ استحثّني بحماسةٍ مبالغٍ فيها، وهمس قبلَ أنْ يشعّ اللّمعان الخاطف بيننا:

«ابتسامة... هيّا سنصوّر».

* * *

بيديْها الرّاجفتين غلّفت أمّي لفافةَ الزّعترِ بالجريدةِ، شدّتني صوبها، قبّلتني بشفتيها البسّامتين على الدّوام، وذكّرتني:

«ثماني صورٍ شخصيّةٍ يا ملهم، لا تنسها يا بنيّ علّنا نستكملُ طلبات الهويّةِ»

أكَّدتُ موافقتي بإيماءةِ رأسٍ لأُسكتها، ودفعتُ نظرتي بين السُّطورِ الشديدة الحلكة، قرأتُ ما كتبَ في بعضِ الجريدةِ، وكأنّني أنزلقُ بحذرٍ نحوِ هاويةٍ سحيقةٍ:

«واحدٌ من كلِّ عشرةِ سوريينَ جُرحَ في الحربِ... أو قُتل»

* * *

رفعَ المصوّرُ ذقني مجدّداً، مطَّ فمي بيديه، وضبطَ رأسي بدقّةٍ من جديدٍ، كلُّ حركاتِ يديهِ بدتْ مدروسةً، ومثلَ طبيبٍ كانَ يأملُ أنْ يُخرجَ روحاً من كلِّ شيءٍ، من الياقة، من الأزرار، من كُمَّي قميصي، انتزعَ نفسهُ من أشيائي الفاترة، ابتعدَ عنّي المسافةَ ذاتها، عايرَ زاويةَ الإضاءةِ وكأنّهُ ينقّبُ عن ماسةٍ في وجهي، لم ينتبه أنّي أشفُّ وأتعتّم، همس راجياً:

«لا تتحرّك هذه المرّة، ولنجرّب بسمةً صغيرةً... صغيرةً فحسب»

* * *

قالت أمّي:

«صرتَ الآنَ رجلاً»

ودسّت لفافةَ الزّعتر في الحقيبةِ، خَفقت نبرتها الغريبة في قلبي، سألتُها بنزقٍ:

«وما حاجةُ الرّجلِ إلى هويّةٍ»

أجّجَ تساؤلي دهشتَها، وارتْ بكفِّها شهقتها، زجرتني وهي تدحرجُ كلماتها الحاسمات في مسمعي:

- لتصيرَ مواطناً بالغاً

- وما حاجتي إلى المواطَنة!!

عاينتني بتشكّكٍ، ولربَّما شتمتْ في سرِّها خيبتها في التَّربية، مَسَحَتْ يَديْها بمنشفةِ المطبخِ المدلّاةِ عن كتفها، وجذبتني لكيلا يسمعني أحدٌ، فترقرقَ صوتها النّاعمُ في أُذنيَّ:

«تُحوّلكَ من رقمٍ إلى عنوانٍ»

حملقتُ فيها مطوّلاً، فارتَبَكَتْ، أنزلتُ عينيَّ، وقرأتُ في ما بانَ من الجريدةِ:

«واحدٌ من كلِّ خمسةِ سوريين يكسبُ مالهُ من تجارةِ الحربِ من قتلٍ أو خطفٍ أو نهبٍ»

أخرجتُ عروسةَ الزّعتر هاذياً، وزعقتُ:

- تعلمين أنّي أكرهُ الزّعتر

- وتعلمُ أنْ لا بديلَ لديَّ

- تعلمينَ أيضاً... أنَّ أبي الرّجلُ كان مواطناً بالغاً حينما قُتلَ، القنّاصُ لم يسألْ عن الهويّة.

أمسكتْ أميّ كفّي التي اخشوشنت من طولِ العملِ، هصرتها بغلٍّ، هزّتها، ودمدمتْ محتدَّةً:

«القنّاصُ حوّلكَ إلى رجلٍ... الضّربةُ التي لا تُميتُ... تُقوّي»

* * *

صرخَ الرّجلُ مغتاظاً:

«يا ولدي بالله عليك لا تبتسم، لكن لا تتجهّم بهذهِ الطّريقة، هكذا لن ننتهي أبداً»

أطفأ ضوءَ الفلاش ثانيةً، دنا صوبي بخطواتٍ مدوّياتٍ، اقتربَ كثيراً، لفحتني زفراتهُ المغتاظة، ثبّتَ سبّابتيهِ بقوّةٍ على زاويتي شفتيَّ، ورسمَ انحناءةً طفيفةً، فآلمني التَّعارضُ الهائلُ بينَ فمي وقلبي، لكن كأشجع الرّجال لم أقل أبداً: «آخ».

* * *

لم أُمهل أُمّي لتربّت على كتفي وتحضنني، كانَ الضَّوءُ الشَّحيحُ يتلألأ في عينيها الواسعتين، وكنتُ سأخبرها بأنَّ كلَّ فتيانِ الصَّفِّ أمسوا رجالاً صغاراً بعدما ضيّعَ الرّجال الكبارُ لهم طفولتَهم، باتَ لهم شكلُ الأطفالِ الذين لا يحلمون والذينَ يرشحونَ كلّما التفتوا رصاصاً ونَعَياتٍ وإشارات استفهامٍ، لكنّي ترفّقتُ بنظرتها الجليلة فسكتُّ، واستدرتُ، وذهبتُ.

* * *

هتفَ المصوّرُ كمن تذكّرَ شيئاً:

«فكّر في شيءٍ تحبّه يا مُلهم»

ففكّرتُ في أُمّي...

* * *

يبدو أنَّ الله لم يسمعني يومها فقذيفةُ الهاونِ حالت بيننا، الثّانية أيضاً فعلت، والثّالثة والرّابعة، ناجيتهُ بلسانِ قلبي:

«رفقاً بها، لحقتني يا ربِّ بالزّعتر»

نزَّ جلدي حرائقَ، والبيتُ خلفي صارَ هيكلاً، شبّتِ النّارُ في دارنا المتهاوية، وأنا الرّجلُ الذي غرزَ أوتادَ رجولته بلحمِ الفاجعة لم أبكِ، لم أحمل والدتي إلى المقبرة، وإنّما جررتها على كتفي إلى السّماء.

* * *

رفعَ الرّجلُ أصابعهُ ليشدَّ انتباهي، استدركَ:

«سأعدُّ للثّلاثة اتفقنا؟! واحد... اثنان...»

لكنَّ العدَّ انتهى من دونَ أن أتمكّنَ من استعادة الهلالِ الذّائب المنسرب كالكلام، لم يهدّدني أو يكرّر محاولاتِ تهدئتي، شاهدني وأنا أتيبَّس، تنهّدَ مستسلماً، ثمَّ التقطَ صورةً سريعةً، ارتبكت، فبشَّ لي مدمدماً:

«هو رهابُ التّبسمِ، لستَ الوحيد... اطمئنّ»

أشارَ بيدهِ إلى الصّورِ المنتثرةِ على الجدران، ابتلعَ ريقاً عسيراً، استطردَ:

«جيلٌ كاملٌ بهويّاتٍ ذاتِ صورٍ كالحةٍ»

غامتْ عينايَ، فربّتَ على كتفي، وهمسَ في أسىً بادٍ:

«عُد بعدَ ساعةٍ لتأخذها»...

في الخارجِ مركّباتٌ عجيبةٌ من الألم تتظاهرُ بأنّها السّائرون والبائعون والمشترون، سيّدةٌ مسنّةٌ تجلسُ على الرّصيفِ بلا سببٍ، ولسببٍ ما تخالُ أنّها غير موجودة، بنتٌ تخرجُ من الحاوية بلا وجهٍ، امرأةٌ تبكي وهي تصفعُ ابنها، عجوزٌ يغمضُ عينيهِ ويمدُّ كفّهُ المفتوحة لأهل الخير، رجلان يتشاجران كذئبين، صبيٌّ يبيعُ البالونات ولسببٍ ما يفجّرها بنفسهِ واحداً تلو الآخر، لم ألحظ تغريد الطّيور ولا حفيف أوراق الشّجر، رحتُ أتلوّى في غمامةِ الزّحام طوالّ ساعةٍ، أصطدمُ بالمنهكينَ، أصنعُ معهم شكلَ الماضي لغدٍ مبهمٍ، أُشتمُ مراراً، أَشتمُ مراراً، معظمُ النّاسِ باتوا أشباحاً، لا يلحظُ بعضهم البعض، لا يشعر بعضهم ببعض، المتعبونَ يحوِّلهم المسيرُ إلى ظلالٍ، والمقهورونَ إلى قنابلَ، أمّا الجائعونَ فتتحلّلُ العظامُ في أجسادهم النّاحلةِ، يخلعونها برويّةٍ، ويتماهونَ مع الضّوءِ الخفيفِ...

صوتٌ مدوٌّ قطعَ كلَّ شيءٍ، بدا مألوفاً، حرّضَ فيّ متواليةً من الانهدامات المتلاحقة، الفظائعُ تناسخَتْ من ذاكرتي وكرّرتْ نفسها، أطاحت الانفجاراتُ الفجائيّةُ بتأمّلاتي، جفلتُ، ركضتُ مع الممسوسين، لم أُفكّر في سلامتي بتاتاً، صوَّبتُ قلبي على الإستوديو، على صُوري، على رجولتي، وعلى حلمي في المُواطَنَة،

كانت الأبنيةُ تنهالُ بالتّتالي بعدَ كلِّ قذيفةٍ، تُشعلُ النّيرانَ وتخفي تحتها الأجسادَ والأصواتَ المخنوقةَ المستنجدة، انقلبَ السّائرونَ منذُ قليلٍ إلى جثثٍ، **«أكثرُ المستفيدونَ الآن هم الجوعى، طوبى للموت حينَ يفتكُ بالعذابات»** هذا ما فكّرتُ فيهِ قبلَ أن تَدُّكَ قذيفةٌ مبنى الإستوديو الهزيل، خُيِّلَ إليَّ أنَّ «الكاميرا» هناك هيَ الأخيرةُ في الكوكبِ، وتصوّرتُ أنّني مثلها... آخرُ الأحياءِ في المنطقة، فعلتُ ما حرّضَتهُ فيَّ مقولةُ أمّي: **«الضّربةُ التي لا تُميتُ...»**، رجعتُ كالأبطال لأُنقذَ صُورَ الهويّةِ، هرولتُ، عبرتني النّارُ لكن لم تحرقني، أصابتني قذيفةٌ لكن لم تُشظّني.

«أنتَ غيرُ موجودٍ بلا الهويّة، غيرُ الموجودِ لا يُخيفهُ الموت»

هذا ما قالهُ لي المصوّرُ المنتصبُ كالشَّبح المَضَبَّب فوقَ حُطامِ الإستوديو، مدّ يديهِ المتفحّمتين بالصّور، ثماني صورٍ خاويةٍ مطليّةٍ بالأسودِ، حملتها كمن يحملُ الغيمَ، ابتسمتُ له، ابتسمَ لي، ثمَّ ودّعتُ طيفَهُ المتلاشي مسرعاً نحوَ أمّي علّها من فورها... تستخرجُ الهويّة.

رفرفة

«من دفترِ الحقيقة... لذكرى شهداءِ
المجزرة في قرية اشبكي»

لم أكد أبلغ الخامسةَ، صبيٌّ بطولِ ذراعين، ورديُّ الخدَّينِ، ضامرُ العضلات، قلبي المنمنمُ رحبٌ كالمروجِ، متخمٌ بقباقيبِ السُّكرِ الملوّنة، بألعابِ السَّياراتِ، بوسادات القطن الوثيرةِ، بألوانِ الشَّمعِ و الطَّباشيرِ، وبصنوفٍ غير منتهيةٍ من الحلوى، أمّا صدري فصندوقٌ فسيحٌ لأُمنياتي القصيَّةِ وأحلامي التي لمْ تتحقَّقْ، عينايَ مبطّنتانِ بعينيْ أُمِّي، حتّى من دونَ علمها، مدجَّجتانِ بغمّازتيها، فكلَّما أغمضتُهما ابتسَمَتْ وابتَسَمْتُ، في الحقيقة أنا طفلٌ بطلٌ... لا يخاف، لكنَّ أحداً من قبلُ لمْ يُدرك ذلك، كانوا يتصرَّفونَ وكأَنَّني غيرُ موجودٍ، فلا يتدخَّلونَ إلَّا إذا أخطأتُ، عندها فحسب تتهوَّشُ عليَّ نظراتهم، لا تقولُ أُختي الكبيرةُ:

«ما أجملَ رسمتك»

تسألني فحسب:

«ماذا تُخربش؟»

أحدِّقُ مطوَّلاً إلى أهدابها الطَّويلة، وأزفرُ إجابتي بتعبٍ:

«أرسمُ الله»

تشهقُ، تعتصرُ صوتها:

- توقّفْ حالاً

- لماذا؟

- هاتِ القلم

- لماذا؟

- هكذا بمن دون سبب... عيب... حرام

- عيبٌ أم حرامٌ؟

- سَتُغْضِبُ الله يا شاطر

- ولماذا يغضبُ إن رسمتُه؟

- سأُخبِرُ أُمّي حالاً

تُهَدِّدُ دوماً بإخبارِ الوالدةِ حينما لا تملكُ الكلمات المعبِّرة أو الإجاباتِ المناسبة وحينما تطغى حواسُّها على تفكيرها الحانق، في الواقع لمْ أكنْ أرسمُ الله لأنّي لا أعرفُ كيف، كنتُ أرسمُ ولداً يحملُ بالوناً لكنَّ أُختي كالآخرين تُصَدِّقُ أُذنيها أكثرَ من عينيها.

لَمْ ينتبه أحدٌ إلى أنَّ في عقلي مُسَجِّلةً صغيرةً، تحتفظُ بأدقِّ تفاصيلهم وعباراتهم، أُمّي التي تفهمُ ما أُريدهُ من دونِ أن أفتحَ فمي، كانتْ تؤنّبني لصراخي، لا تعلمُ أنّي أُقَلِّدها حينَ تغضب، تستغربُ كيفَ أحفظُ قاموساً من الألفاظِ النّابيةِ... وكأنَّها لم تسمع أبي يردّدها قبل موته، الكبار غريبو الأطوار، لا يفهمونَ أنَّ للصِّغارِ أمثالنا دوافعهم الذَّكيّة، تهمسُ بلؤم كأنّها لكائناتٍ شفَّافةٍ:

«سيدخلُ المدرسةَ هذا العام... وسيتَغَيَّر»

لمْ أُخبرها بأنّي لن أذهبَ إلى المدرسة ولن أتغيَّر، لن تستطيعَ إجباري على ذلك كما لم تتمكَّنَ من جعلي أشربُ الحليب، أنا لا أشربُ الحليبَ لكيلا أكبر، لا أريدُ أن أَنْضُجَ سريعاً فأصبحَ غبيَّاً مثلهم. تضربني والدتي كلَّما تشاقيتُ بأقربِ ما تطولهُ يدها... بحزامٍ... بحذاءٍ... بعصا... بكلِّ ما يتيسَّرُ أمامها من وسائلَ

للعقابِ إلّا أنّي لا أتوجَّعُ أبداً فقرطها الجميلُ الذي لا يكفُّ عن التأرجحُ في عينيَّ يُحوّلُ كالسَّاحر أيَّ ألمٍ إلى حُبٍّ كثيرٍ.

* * *

تقاسُ الأحلامُ باستحالتها... كلَّما كانتِ الأماني سهلةَ التَّحَقُّقِ خَفتَ الفرحُ الآتي معها، في قريتنا الفقيرة كلُّ الأحلامِ كانتْ عظيمةً فكلُّها صعبةُ المنال، أمنياتُ الصِّغارِ قدْ تُلَبَّى بعد أنْ يكبروا، لكنَّها تتركُ ندوباً لا تمحى بتحَقُّقها، فالأوانُ غالباً ما يفوتُ على اللهفةِ الطِّفليّةِ، تأَخُّرها لا يُعَوَّض، إنّه يتحوَّلُ إلى طبقاتٍ من الحرمانِ، تتراكمُ مع الوقتِ تحتَ الجلد، ذلكَ الذي يتجعَّدُ من الدّاخل في مراحلَ مبكِّرةٍ جدَّاً، مؤدّياً في نهايةِ المطافِ إلى شيخوخةٍ جوَّانيّةٍ مخفيّةٍ.

رفاقي شيوخٌ في أجسادٍ صغيرةٍ ناعمةٍ، لهمْ وجناتٌ بارزةٌ وأوجهٌ صفراء، معظمُ أسرهم متديّنة، يدسُّونَ «الله» في أحاديثهم بكثرةٍ، في العامِ الفائتِ كنّا نجمعُ الخنافس ونطاردُ القطَطَ ونتراشقُ بالوحلِ صباح مساء، منذُ أشهرٍ بدأنا بحمايةِ الحيواناتِ حتّى تلكَ التي لا تأبَهُ لحمايتنا، الفقراءُ يكبرونَ بسرعةٍ، رأسُ مالهم من الوقتِ أقلّ

بكثيرٍ من نظرائهم من الميسورين تتبدَّلُ اهتماماتهم وهواياتهم وفقاً للمتاح، حتّى ملامحهم تتغيَّرُ تبعاً لعشاءِ اللّيلةِ الماضية، يكبرونَ فجأةً... في دقائقَ، بموقفٍ صادمٍ أو منظرٍ مدهشٍ، ابنةُ عمّي مثلاً كبرتْ يومَ عرسها، أُختي كبرتْ يومَ وشوشتها أمّي بشيءٍ ما، أمّا أنا فكبرتُ منذُ شهرين وعشرة أيّامٍ عندما دهسَتْ سيّارةٌ فارهةٌ أبي ومات، وقتها نضجَ كلُّ شيءٍ فيَّ بلحظةٍ واحدةٍ، وجدتني أفكّرُ دفعةً واحدةً بجدوى الحياة.

الكبارُ يحذِّروننا من الكذب إلّا أنّهم لا يتوانون عن زراعةِ كذباتهم في رؤوسنا، يسقونها باهتمامٍ، يرعونها بكذباتٍ جديدةٍ طازجةٍ دوماً، يقولونَ إنَّنا أذكياء ومهَرَة وأنَّ المستقبلَ ينتظرنا بلهفةٍ، يقولونَ عن الغائبينَ أشياءً عظيمةً وينعتونَ القساةَ بصفاتٍ لطيفةٍ، ووسطَ وهمٍ لذيذٍ يفوحُ منهُ الحبُّ تنمو أحلامنا وتكبر، أحياناً نتذكّرُ أشياءً لم تحدث وأحياناً نختلقُ أحداثاً انتظرناها، لولا كلّ ذلك لما أصبحَ أحد شبابِ قريتنا طبيباً لامعاً ولا إحداهنَّ بطلةَ العالم في ألعاب القوى... يكذبونَ بمهارةٍ في هذا الرّيفِ القاسي... يكذبونَ لنعيش.

* * *

كنتُ أمتطي غزالاً لحظةَ عَلَتِ الأصواتُ من حولي، قبضْتُ بيدي على أحدِ قرنيهِ وبالثَّانية على خصلةِ شعرٍ شقراء حارَّة، فارتفَعَتِ قوائمهُ في الهواءِ، وبمشهدٍ مماثلٍ لذلكِ الذي تجرُّ فيهِ الغزلانُ عربة «بابا نويل» طُفْتُ في السّماءِ على ظهرهِ، من خلفي تدفَّقَتِ الصيحاتُ:

«سيخلعونَ الباب»

«داعش في القرية»

«أيقظي الأطفال»

شددتُ على خصلةِ الشَّعرِ بأقصى ما استطعت حتّى قطفتها، لم أقصدْ أنْ أنتزعها كما فعلتْ، كنتُ آملُ أنْ يخرجَ بي من هذا الكوكب، لكنْ من شدَّةِ ما تألَّمَ الغزالُ فقد اختفى من فوره تاركاً أصابعي تلتفُّ بقوَّةٍ على حوافّ البطّانيّة...

دفعتني الجدَّةُ في خزانةِ المؤونةِ وكأنَّني كيسُ الطَّحينِ، أصابعُها المجعَّدةُ تركتْ على جلدِ فخذي نسخةً حمراءَ منها، نظرتها الصَّارمةُ قدحتْ شرراً في عينيَّ، لم أسألْ بتاتاً عنْ السَّبَب، عاينتُ اهتياجهمْ من حولي، كبحتُ كلَّ «لماذا؟» تحرَّكتْ في حنجرتي،

وجاهدتُ دافعاً جسدي في رائحةِ البرغلِ والأرزِّ إلى أن تكوَّرَ على نفسهِ في الزَّاوية، لمْ أتمكَّنْ بعدَ ذلكَ من زحزحةِ ظهري، لكأنَّما دُفِعْتُ في قالبٍ بحجمي تماماً وعلقتُ فيهِ، كابدتُ الحرَّ الخانقَ، شاهدتُ أخي النَّائمَ يتشبَّثُ بذراعِ الجدَّة الوثيرِ قبلَ أنْ يرقدَ بتراخٍ إلى جواري، رأسهُ كانَ يغطُّ في الحلمِ الطَّويل، وخيطُ اللُّعابِ المنسابِ من زاويةِ فمهِ يسيلُ برقّةٍ فوقَ ساقي، تملَّيتُ ذراعها وهي تدفعهُ مسرعةً قُربي، ثمَّ إلى سبَّابتها المرتعشة المُشْهَرَةَ كالسَّيفِ في وجهي، انحنَتْ هامسةً بنبرةٍ مخيفةٍ وبأجفانٍ محمرَّةٍ:

«إيَّاكَ أنْ يبكي... إيَّاكَ أن تحكي... سنموت لو فعلتما... سيذبحوننا... لا تخرجا مهما حصل... مهما حصل... فهمت؟»

تطلَّعتُ إلى ذؤابةِ شعرها الرّماديةِ وهي تتفلَّتُ من غطاءِ الرّأسِ وأومأتُ برأسي موافقاً، سمعتها تُخَبِّئُ أُخْتَيَّ في مكانٍ لم أتمكَّنْ من تمييزهِ، استكَنْتُ من فوري كتمثالِ الجبسِ المركونِ في غرفة الاستقبال، تظاهرتُ بأنّي العدم، ولو استطعتُ أنْ أُوقفَ قلبي لحظتها لما توانيت، ظلَّ يتخبّطُ كالأحمق... تك تك.. تك تك، ركبتايَ المرتعدتانِ فحسب خرجتا عن سيطرتي تماماً، أغلَقَتْ علينا بابَ الخزانةِ فأظلمَ العالم، تلكَ العتمة اللّعينة التي

تُقَارعُ في هدْأتها باباً يصفق... وكلباً يعوي... وشجرةً تتخلَّصُ في السِّرِّ من أوراقها... تهيشُ منها أيضاً كائناتٌ لا يُميّزها أحدٌ سواي، يختلقُ السَّوادُ كلَّ ذلكَ حتّى من دونِ وجودِ البابِ والكلبِ والشَّجرة، ألصقتُ أُذني على جبينِ أخي كيما أتسَمَّع إلى أفكارهِ، كنتُ واثقاً بأنَّ أحداثاً مشوّقةً تدورُ في مكانٍ ما من رأسهِ، لكنَّ أشياءَهُ السِّرّية انكمشتْ على ذاتها فراحَ يتقلَّبُ على جانبيهِ، أحدثتْ رجلهُ المتخبّطةُ جلبةً كبيرةً، خفتُ أنْ يستيقظ، تذكَّرتُ غمغمات أمّي حينما ظنَّتْ مرَّةً أنّني لا أُصغي إليها:

«يستحيلُ أنْ يُحافظَ صبيٌّ على هدوئهِ مهما اتّخذنا من تدابيرَ»

لمْ تعلم والدتي حينئذٍ أنّي وإنْ كنتُ ألعبُ ساعتها بمكعَّباتي فهذا لا يعني أنَّ أُذنيَّ تلعبان أيضاً، لمْ أكنْ قدْ فهمتُ بعدُ ما يحدث، سحبتنا الجدَّةُ من سريرنا بطريقةٍ فظيعةٍ أشبهَ بتلكَ التي تتَّبعها لإجبارِ الدَّجاجاتِ المُضْرِباتِ على القيامِ عن بيضاتهنَّ، تنامَتْ إليَّ أصواتُ الرَّصاصِ والصُّراخِ المتدفِّقِ من الخارج، لكنْ أكثرُ أمرٍ مفاجئٍ لاحظتُه هو أنَّ أُمّي لم تكنْ نائمةً إلى جواري كما تخبرني كلَّ صباحٍ، في الحقيقة كلُّ واحدٍ فينا يعتقدُ أنَّ أمَّهُ ملكهُ وحدهُ وأنّها تنامُ معانقةً إيَّاهُ طوالَ اللّيل من دونَ

بقيّةِ الأشقَّاءِ، لم يعلمْ أحدنا البتّة أنَّ أُمّنا لا تنامُ ليلها... إنّما تسهرُ لحراسةِ مناماتنا وحسب.

رحتُ أرسمُ صورةً لله في خيالي ثمَّ أمحوها سريعاً، شعرتُ بطعمِ الفلفلِ الأحمرِ الحارِّ الّذي طالما هدَّدتني بهِ أُمّي يلذعُ لساني، لم أهتَم، تابعتُ الرَّسمَ الخفيَّ مراراً لكنَّهُ لم يكتمل، فتأنيبُ أُختي كانَ قدْ أصبحَ ركناً أصيلاً من خيالي ذاته، كيفَ سأُكلِّمُ الله من دونِ أنْ أنظرَ إليهِ، وكيف أنظرُ إليهِ من دونِ أنْ يكونَ لهُ وجهٌ ما، كانَ يجب أنْ أستدعيهِ، وأن أُحدِّثهُ في موضوعٍ جدّيٍّ... هذهِ المرَّة لا أُريدُ درَّاجةً ولا حذاءً رياضيّاً مضيئاً ولا أيضاً مثلّجاتٍ.... حبّذا لو يهبني جناحين... جناحينِ صغيرينِ بسيطينِ لا يكلِّفانِ إلهاً عظيماً مثلهُ أكثر من كلمةٍ واحدة: «كُنْ».

«حبيبي الله لن أستخدمَ الجناحينِ في اللّهو كما يُخَيَّلُ إليك، أريدُ الخروجَ وفهمَ ما يحدث، ربّما أتمكن من مساعدة أهلي، فجدّتي عجوزٌ لتنقذنا وأمّي مريضة.. ألا يُفْتَرَضُ بكَ أنْ تعلمَ ذلكَ كلّه... أنتَ تُراقبنا ليلَ نهار... تتحمَّلُ فظاعةَ تسجيلِ أفعالنا وقراءةِ أفكارنا، أخبرونا بأنَّكَ في كلِّ مكانٍ، تتوعَّدنا إن أخطأنا وتجهِّزُ لنا هداياكَ إنْ عملنا خيراً، يعتقدونَ أنَّ عملكَ الوحيد هو

رعايتنا والتّلصُّص علينا... لا يتخيّلونَ مثلي أنَّ لكَ حياتكَ الخاصّة... لم يسألْ أحدٌ نفسهُ: ماذا كنتَ تفعلُ قبلَ أن تخلقنا!!، لا شكَّ في أنّكَ كنتَ مستلقياً تتأمّلُ مجرّاتكَ المضيئة لحظةَ صَرَّتْ درجاتُ السُّلَّم العتيقِ تحتَ قدميْ أمّي، كانتْ ستفَتِّشُ في السَّقيفةِ عنْ أيِّ شيءٍ نأكله، سَقَطَتْ وكُسِرَتْ رجلاها وامتدَّ بنا الجوعُ أيّاماً، أنا لا ألومك فأنتَ لديكَ مليارات المشاكلِ اليوميّة التي تتطَّلبُ تدخُّلك... إنّي أقترحُ حلّاً فحسب».

سمعتُ صوتَ بكاءٍ مريرٍ، وابتهالاتٍ خفيضةٍ، تعالت بعدها صيحاتٌ متقَطّعةٌ... استغاثاتٌ مخنوقةٌ، دفعتُ بإصبعي بابَ الخزانة، فانشَقَّ عن حزمةٍ طوليّةٍ من نورٍ باهتٍ، تراءتْ لي جدّتي، شَحُبُ وجهها، وتهدَّلَ خدَّاها، كانتْ تنتفِضُ كلَّما انْطَفَأتْ وكأنْ بشراراتٍ خفيّةٍ تقدحُ بينَ جوانحها، راحتْ تجوسُ بجبروتٍ عجيب، تجرجرُ خلفها ثوبها الطَّويل، وتغرسُ أخمصَ البندقية في تجويفِ كتفها الهشّ، شُنَّ هجومٌ ما على البابِ، كسروا زجاجهُ، بوثبةٍ واحدةٍ كانتْ خلفه، رجالٌ غرباء كأنّهم الشّياطين يصرخون:

«الله أكبر»

«جئناكم يا كفَّار»

تلقَّتهم جدَّتي بالرَّصاص، أصابعها الرَّاعشاتُ انقضَّتْ على الزّناد، خدّها ملتصقٌ بالكعبِ الخشبيّ، عينها اليسرى مغمضةٌ واليمنى التي كابدتْ سنواتٍ مياهها الزَّرقاء تحاولُ جاهدةً التَّصويب، الجدَّةُ السَّبعينيّةُ المريضةُ دوماً... التي تئنُّ وتلهثُ حتّى وهي نائمةٌ والتي لا تقدرُ على النّهوضِ إلّا بمساعدةٍ من أكفِّنا الطّريّات تحوَّلَتْ بدقائقَ إلى لبوةٍ شرسةٍ، راحَ صدري يعلو ويهبطُ، عطشْتُ فابتلعتُ ريقي، شربتهُ حتّى جفَّ، شعرتُ بحلقي يتشقَّق، وبعرقي البارد يسيلُ على جسمي كالأفاعي.

«إلهنا العزيز أُمّي تصرخُ في الخارج وأخي شرعَ بالبكاء.... أعدُكَ أنّني لن أرسمكَ بعدَ الآن... لن أُغضِبَ أحداً مجدَّداً... لن أضربَ البطَّةَ بالحصى... لن أقطفَ الدُّراق من شجرةِ جارنا.... أُقسمُ لكَ سآكُلُ البامية وسأشربُ الحليب.... ولكنْ عجّل أرجوكَ بالجناحين».

انتابَتْ أخي الصَّغيرُ نوباتُ نهنهةٍ، ثمَّ بكاءٍ، ثمَّ صراخٍ، أحطتهُ جيّداً، ووضعتُ إبهامي في فمهِ كيما يلهيه قليلاً، لكنّه انفَلتَ من بين ذراعيَّ، اندفعَ إلى الخارجِ زحفاً، ارتدَّ بابُ الخزانةِ عليَّ من

تلقاءِ نفسهِ، أبقى لي مجدَّداً فتحةً صغيرةً تُسَرِّبُ الأصواتَ والرَّوائحَ وبعضَ المناظرِ.

«أيُّها الرَّبُّ العظيم... يبدو أنّكَ تحبُّ الألقاب ككلِّ الكبارِ الذينَ خلقتهم... أيُّها الجبَّار... أيُّها القهّار... أيُّها الرَّحيم... أعطني جناحين إنْ أمكن وأنا سأتنازلُ عن حصَّتي في الجنّة».

تجمَّدَ الدمُ في عروقي، أجزاءُ الثَّواني المتناهيةُ الصّغرِ كانتْ تمرُّ بإيقاعٍ بطيءٍ محتدٍّ يرافقها قرعُ طبولٍ ينبعثُ من مكانٍ ما... ربّما صدري.

«يا ربِّ إن كنتَ لا تزال صاحياً فاسمعني، لم أعدْ أُريدُ شيئاً، ولكن إنْ كنتَ لنْ تتدخَّلَ فلماذا خلقْتَ كلَّ أولئكَ الأشرار؟ ألنْ تحزنَ إن قتلنا فيما أنتَ تتفرَّج؟ كيفَ سأصبحُ رائدَ فضاءٍ إنْ متُّ الآن؟... حسناً لا بأس... يبدو أنَّ جدَّتي تتصرَّفُ...»

قتلتْ جدَّتي ثلاثةً منهم، وحينما نفدَ الرَّصاصُ قتلوها، خلعوا الباب، ودخلوا المنزل بعدَ مقاومةٍ أجَّجَتْ شراسَتَهم، سالَ الدِّفءُ في سروالي القصير، واتّسَعَتْ من حولي رقعةُ الرّائحةِ الكريهةِ، هَمَدْتُ، أغمضْتُ عينيَّ، ولكنَّ خلاياهما الحسّاسةُ للضَّوء قد انتشرتْ خارجاً، وراحَتْ تجوسُ في أنحاءِ المكان...

«يا ربِّ... قتلوا جدَّتي»

«يا ربِّ... يذبحونَ إخوتي»

فتحتها كالشّهقة، سمعتُ أصواتهم تهدرُ في الدَّاخلِ، فأغمضتُهما مجدّداً، ولم أجرؤ على النّظر بعدها البتّة لاعتقادي أنّني سأرى نهاية العالم، على الأقل نهايةَ العالم الذي أعرفه... بيتي.

لاحتْ لي ظلالهم، ظلَّتْ تتناقصُ إلى أنْ لمحتُ أقدامهم أمامي، زيٌّ أسودٌ... شعرٌ أشعثٌ... لحى طويلة... صرخاتٌ وتكبيراتٌ مجلجلةٌ، حطَّتِ يدٌ ثخينةٌ عليَّ، سحبتني من شعري، ورمتني بينَ الأرجلِ، طأطأتُ مُنصاعاً، عندما ذبحني الرَّجلُ الوحشُ ذو النَّظرةِ الخاوية تساقَطَتْ أصابعي منّي، جَحَظَتْ عينايَ بنظرةٍ يائسةٍ، خارتْ قوايَ، ولكنّي لمْ أمتْ كما خُيِّلَ إليه، قطَّعَ جسدي إلى أجزاءٍ كحبَّةِ بطاطا من دونَ أنْ يتمكَّنَ من بترِ ذلكَ الوميض المتلألئ الذي كانَنِي وأصبحتهُ، شاهدتُنِي أرتفع... بوزنٍ خفيفٍ وحجمٍ منعدمٍ، أنسلُّ من السَّقف بهدوءٍ، لينفَسِحَ أمامي فضاءٌ غير نهائيٍّ الامتداد... في تلكَ اللحظة بالتّحديد شيءٌ فيَّ راحَ يرفرفُ.

«أيُّها الرَّبُّ هل أنتَ من منحتني جناحين أم أنَّني أطيرُ من تلقاءِ نفسي؟... حسناً لم يعد ذلكَ مهمّاً... أحبك»

تحرُّري من جسدي الذي أعيشُ فيهِ لم يكنْ بتلكَ الصُّعوبة، بدا الأمرُ وكأنَّهُ انتقالٌ سلسٌ وغيرُ ملحوظٍ بينَ منطقتين، في السَّابق راودتني الكثيرُ من المخاوفَ الغريبةِ... أنْ أفقدَ أسناني... أن يتساقطَ شعري... أن يتقوَّسَ ظهري، بتُّ بغتةً خفيفاً جدَّاً بلا أسنانٍ أو شعرٍ أو ظهرٍ وبلا مخاوفٍ أيضاً.

لمْ تكُنِ الشَّمسُ قدْ طلعتْ بعد، ادلهمَّتِ السَّماء، وابتلعتِ عتمتها أيَّ أثرٍ لأيّةِ نجمةٍ، ولكنَّ نوراً ما لبثَ أنْ شعَّ من بينِ سحابتينِ، لم أكد أنظر إليهِ حتّى سطعَ وجهُ جدَّتي، بدا بارقاً جدَّاً ومنيراً، هطَلَتْ دموعها مطراً، قالتْ لي:

- لم أستطع حمايتكم يا حبيبي.
- يعني كلّنا متنا؟
- أبقوا على والدتك فحسب... كيما يقتلها العذاب
- أين إخوتي؟
- أُحاولُ تجميعهم

- طيّب إنْ وجدتهم فاحضنيهم يا جدَّتي... أنا لن أتركَ أمّي، سأنزلُ لاصطحابها معي.

- تعالَ إلى هنا... لن تقدرَ مهما حاولتَ فإنَّ ذلكَ لمستحيل... ارجعْ يا حبيبي.... عد إلى هنا .

أحياناً لابدَّ من ظلامٍ لنستبينَ اللّمعانَ الحقيقيّ، الضَّوءُ يساوي بينَ الأشياء أمّا العتمةُ فتُظْهِرُ الفرق، كانتْ جدَّتي ضعيفةَ البصرِ تسوِّغ سببَ رؤيتها لأحدنا دونَ الآخر بكذبةٍ صغيرةٍ: «من يُحبُّ أكثر يُشعُّ أكثر»... كنّا نضحك منها، نضحك بلا انقطاعٍ، لم أحسبْ أنَّ الوقت سيثبتُ لنا سريعاً كيفَ أنَّ الكثيرَ من الكذباتِ المكشوفةِ ليستْ إلّا الحقيقة.... إذن فلكم أحبَّتنا تلكَ الجدَّة.

تبعتُ صوتَ أُمّي حيثُ يجهشُ في النّداءِ، ويُبَدَّدُ في مرارةٍ ذلك الصَّمتَ الثّقيلَ، نظرتُ إليها لكنّي لم أَرَها، فقد تجمَّعَ الدّمعُ بينَ أجفاني كالفيضانِ الذي ابتلعَ الصُّورَ كلَّها، وفجأةً ارتَسَمَتْ أمامي بالتَّدريج وكأنّما أحدٌ آخر قد استيقَظَ فيَّ ومسحَ بأصابعهِ الغبشَ المتكاثفَ على عينيَّ من الدَّاخل، حينئذٍ لمحتها جاثيةً أمامَ جسدي، تتطلَّعُ إليهِ بذراعينِ مشرعتينِ، تملَّكتني رغبةٌ عارمةٌ في الارتماءِ في

حضنها، رغبتُ في أن أصرخَ: «يا ماما أنا لمْ أَمُتْ» ولكنَّ فمي المتشبّعَ بالأنينِ كانَ قد تحجَّرَ، كانتْ جالسةً بينَ جثثنا تُمَرِّغُ وجهها بأحذيتنا المصفوفة عندَ الباب، وتعتصرُ يدَ أخي بلوعةٍ. أخَذَتْ تشهقُ وتحملقُ فيَّ وكأنَّها لا تعرفني، غصتُ معها في بقعةِ الدَّمِ الحارِّ، لمْ تكن في الواقعِ تراني، قبَّلَتْ أشلاءنا، فدارَتْ قبلها في زوايا البيتِ المكلومِ، ألقيتني فوق صدرها، ظننتني سأظَلُّ خيالاً معلَّقاً بطرفِ ثوبها إلى الأبد، لكنْ بعدها دوّتْ فوقنا رفرفةٌ كثيفةٌ، نظرتُ إلى أعلى، شاهدتُ إخوتي يرفرفون، جاؤوا أيضاً لنيَّةٍ ما...

عندَّ الصَّباح وفي الجنازةِ الجماعيّةِ توقَّفَ الأحياءُ الحزانى عنْ دفنِ أجسادنا، انسربَ التُّرابُ من قبضاتهم المغلقة حبَّةً تلو الأُخرى، شهقوا جميعاً، اختلجَتْ أعينهم، فركوها في ذهولٍ، ومن دونَ أنْ ينبسَ أحدهم بحرفٍ راحوا يتفرَّجونَ على أُمّي وهي تلوّحُ لهم فيما ترتفعُ مثلَ نسمةٍ خفيفةٍ... في السَّماءِ العالية .

كرةُ النِّيكل

- الأعيادُ استجداءاتٌ ذليلةٌ للسّعادة

- هذهِ حُجَّتُكَ لتجنُّبِ الاحتفال؟!

لم أُجبِ الطَّبيب، أثارتْ حنقي طريقتهُ المسرحيّةُ في استجوابي، كدتُ أسألُهُ مجدّداً عن سببِ وجوده لولا إفاقةٌ ذكّرتني بتكراري المستمر للسّؤالِ ذاته، تيقّنتُ من نظرتهِ البالغة التودُّدِ أنّه أجابني مراراً، لكنَّ «الزّهايمر» وحشٌ يُهوِّمُ فوقَ ذاكرتي، يمتصّني، يقايضني بالنّسيان المريح ويشربُ الأحداثَ دونَ اكتفاءٍ، واريتُ فيوض عيني بظهرِ كفّي، تماسكتُ، وأصغيتُ إلى سؤالهِ التّالي:

- لم تتزوّج... لماذا؟!

- بحثتُ طويلاً عن خيّاطةٍ بارعةٍ تجيدُ خياطةَ حضنٍ دافئٍ لغريبٍ، لمشرّدٍ يرتجفُ برداً، لكنّني لم أجد.

- إذن فالمساحاتُ السَّوداءُ الطّاغيةُ في لوحاتكَ هي غربتك!؟

- استخدمتُ كلَّ ما أوتيتُ من سوادٍ من الزّيتيّ إلى المائيّ ومن الفحمِ إلى «الماسكارا» للتّعبيرِ عن قتامةِ هذا العالمِ... وما أجدتُ.

- يا رجل... ما كلُّ هذا القهر! ما كلُّ هذهِ الخيبة!

- ليستْ خيبةً، ليسَ قهراً، إنّها صورةٌ شعاعيّةٌ لحيواتنا الهلاميّة.

- ربّما... لكنّي ما زلتُ مصرَّاً على أنّكَ تكابر.

تملّى من فوقِ نظّارتهِ الدّائريّةِ سُلاميّاتي الرّاعشات، غيظي الذي خرجَ متقطّعاً مع زفراتي الطّويلات، تجرّأ وتلمّسَ بكفّهِ الفتيّةِ درباً بينَ التَّجعّداتِ الطَّريّةِ النّاتئةِ، شعرتُ وهلةً بأنّني مستحاثّة تتعرّضُ للفحصِ والدّراسة، نفضتُ عنّي يدهُ، فسأل:

- أن يذبلَ منبعُ كلّ ذلكَ الجمال على هذا النّحو كافٍ لتكونَ الحياةُ وضيعةً.

- ليست وضيعةً وليستْساميةً أيضاً، هي هكذا دوراتُ نموٍّ، هرمٌ وفناءٌ وولادة، شيءٌ ما يحتوينا ولكن لا نحتويه.

أخرجَ من جيبٍ داخليٍّ في «الجاكيت» كرةً صغيرةً لامعةً ذاتَ سلسلةٍ رفيعةٍ، أرجحها قبالتي، بينما غمغمَ بتروٍّ:

- مشتاقٌ... إلى الحديث... أليسَ... كذلك؟

- لستُ مشتاقاً إلى شيءٍ.

- أنتَ حرٌّ، تصوّر أن أتركك الآن وأمضي، أيّةُ عزلةٍ ستعتريك... أيّةُ كآبةٍ!!

- وما شأنكَ أنت! من اشتكى إليك؟

- لوحاتُكَ... هيئتُكَ... أنت

سرحت مطوّلاً في كرتهِ الصَّقيلةِ المعدنيّةِ، تماهيتُ معها دونما وعي، هصرتُ ذاكرتي لأتيقّنَ من كوني لم ألجأ إليهِ فعلاً، عجزت، وغاصتْ في وحلِ «الزّهايمر» دمعةٌ أخرى، مسحتها بكمّي خفيةً، وجاريتُ كذبته:

- أنا أرسمُ لكيلا أتحدّث.

- لم تكد تقول انتهى وقتُ الرّسمِ وحانَ وقتُ الكلام.

- حسناً إن كنتُ فعلتُ، ولكن أبعد هذه اللّعينة، ماذا ستجني من تنويمي؟

- دعكَ من هذه اللّعينة ولا تقلق على صحوتك، قلّي الآن ما قصّةُ بسمتك؟!

- بربّك يا حكيم، ما شأنكَ بل ما شأنُ الجميعِ ببسمتي؟!، يزعجكم إلى هذا الحدّ أنّي بشوشٌ... مرتاحٌ... سعيدٌ... مجنونٌ يا أخي؟!

- سلامتكَ من الجنون، أعتذر إنْ ساءكَ سؤالي، لكن هذهِ التوأمةُ بينَ فنٍّ سوداويٍّ وبينَ فنّانٍ بسّامٍ مرتاحٍ سعيدٍ مثيرةٌ حقّاً، صحيح؟!

- طيّب، وهل هنالكَ شرطٌ وجوديٌّ يحتّمُ الانسجام بينَ الصّانع والمصنوع؟

- لا

- ألن تتركَ الكرة؟

- لا

خُيّلَ إليَّ وهلةً أنَّ مَن يُحاورني شرطيٌّ وليسَ طبيباً نفسيّاً، ثمَّ قادني السُّكوتُ الاضطراريُّ نحوَ الكرةِ المتأرجحةِ مجدَّداً، فأشعلت فيَّ بدورها صوراً مقطَّرةً متكاثفةً على زجاجِ ذاكرتي الباردة...

* * *

يرفعُ والدي الميّت يدَهُ ليرميني بحجرٍ للمرّةِ الثّانية، يشجُّ لي رأسي، أهربُ بجبيني المدمّى وبطولٍ لا يتجاوزُ نصفَ المترِ، خفيفاً كنتُ، بريئاً، غاضباً، لكن مصرَّاً على التبسُّمِ كلّما استرقتُ النّظرَ إليهِ...

معلّمي أيضاً كانَ يتحوّلُ إلى مرجلٍ كلّما رفعتُ إصبعي، يتوقّعُ أنّي اكتشفتُ له خطأً لغويّاً أو حسابيّاً، يغلي إذ ابتسمتُ، ويفورُ مخرجاً عصاهُ، يهمهمُ كمن يزفرُ غِلَّهُ:

- يُعجبكَ تصيّدُ أخطائي يا ابن الـ...

تهوي العصا تباعاً على كفّي، فتحمرُّ، وتتورَّمُ، لكنّي كلّما صرختُ كالمذبوحِ: «آخٍ» ازدادت عرضاً ابتسامتي أكثر...

حينَ ماتَ أبي هزّتني أُمّي بما أُوتيتْ من عزمٍ، كانَ أُخوتي يبكونَ، وحدي كنتُ أبتسمُ، قالتْ للمعزّينَ وهي تعانقني:

«هذا الصبيُّ مصدومٌ، مضروبٌ على رأسهِ»، زعقتُ في أُذنها: «لستُ مصدوماً»، فكمَّتْ بيدها فمي وقرصتني باليدِ الأُخرى...

* * *

قلتُ للطّبيبِ الذي لم يتعب من أرجحةِ الكرة:

- أعتقدُ أنّي تمكّنتُ في سنِّ تسعِ السنواتِ من تشخيصِ حالتي، أنا كائنٌ لا يُصْدَم، لا يستغربُ... ولا يُثيرُ حفيظَتَهُ أيُّ أمرٍ مهما بدا غريباً أو مؤلماً أو ممنوعاً.

تخاذَلتْ يدُه، فتخامَدَتِ الكرة، سألَ مستهجناً:

- وهل هذا طبيعيٌّ في رأيكِ؟

- لستُ أدري لكن يبدو أنَّ جذورَ الحالة تعودُ لعمرِ خمسُ السّنوات حيثُ زارتنا أسرة أسعد أوّلَ مرّةٍ، الصّبيِّ الشّرسِ ذي الوحمةِ على جبينهِ الذي سرَقَ دفتري الأحبّ.

قهقه الطّبيبُ، وعاودَ الأرجحةَ مدمدماً:

- ذاكرةٌ رائعةٌ ما شاء الله، تابع... تفضّل

حاولتُ هنيهةً أن أتذكّر كيفَ بدأنا الحديث، وكيفَ قادنا إلى هذهِ الحادثة تحديداً، لكنّي كالعادة أخفقتُ، استدركتُ:

- حاولتُ الاستنجادَ بأهلي أو بأهلهِ لكنّي اتّهمتُ بقلّةِ الأدب والكذب والإساءة للضّيف، كانَ إحساساً مقيتاً بالظّلم

دفعني للبكاءِ طوال اليوم... ذلك اليوم الذي عوقبتُ في آخرهِ، في الزّيارةِ التّالية تكرّرَ الأمر، سلبني تفّاحةً ولم أستطع منعه أو استعادتها، طويت غلّي، ابتسمتُ غيرَ مبالٍ، وأدرتُ له ظهري، فما كان منهُ سوى أن أعادها مشترطاً لعبي معه. مشهد طفليٌّ تافه غير قابل للتّعميم لكنّه تكرّر معي كثيراً بحيثُ أدركتُ أنَّ الحياة تبتسمُ للمبتسمين العديمي الاكتراث، واقتنعتُ بأنّي كلّما باليتُ بها أزعجتني، لقد مثّلتُ في طفولتي دورَ المبتسمِ طويلاً مدارياً قهري أو حزني أو حرجي لكنّ البسمة ما لبثتْ أن استحالتْ عادةً والعادةُ أشرسُ من الفطرة.

- هل تشعرُ بالرّضا حقّاً حين تبتسم بقلبٍ مكسورٍ؟

- لستُ راضياً ولست ناقماً كذلك، لكنّي غيرُ مهتمٍّ، غيرُ مهتمٍّ لكوني كلّما أحببتُ أحداً أصبحتهُ وكلّما كرهتُ أحداً أصبحتهُ، غير مهتمٍّ لمرايا النّاس فيَّ ولا لمتناقضاتي وتقلّباتي، أنا متصالحٌ جدّاً مع الخطيئةِ والذّنب واللّامقبول، أفهمُ طبيعتي البشرية النّاقصة، وأفهمُ أنَّ الحياةَ قاتلةٌ أو مقتولةٌ.... صدّقني تقتلها ببسمةٍ.

- وماذا تفعل بأحزانكَ المستترة؟

- أؤجّلها

-إلى متى

- ربما إلى حياةِ ما بعدَ الموت، وربّما أحتالُ عليها فحسب

- هذا ما تفعله بالألم أيضاً؟

- ليس تماماً، كثيراً ما يغلبني لكنّي أدرك أنَّ الكون لن ينهار جرّاء آلامي

- ولوحاتك؟

- هي نفسي المغيّبة ... إنّها أكثرُ صدقاً منّي

- ركّز في الكرة جيّداً وأجب... أيّهما أكثر أصدقاؤكَ أم أعداؤكَ؟

- أتعلم لقد حاولتُ مرّةً إحصاءهم، فجهّزتُ جدولاً بأسماءِ الأصدقاء وآخر للأعداء

- وماذا كانت النتيجة؟

- وجدتُ كلَّ الأسماء في الجدولين

- بسمتكَ إذن بعضُ خذلان؟

- ربّما اتكاءةٌ مريحةٌ على عجزٍ ثقيلٍ

سكتَ الطّبيبُ فجأةً، بينما دختُ تحتَ تأثيرِ الكرةِ المتخامدةِ، شعرتُ بالنّعاسِ ثمَّ بقوّةٍ مغناطيسيّةٍ مهولةٍ تقتلعني من مكاني، اهتزّتِ الخيالاتُ قبالتي باهتزاز الكرة، كابدتُ لترتيبها، تشبّثتُ بالكرسيّ لكنّي سُحبْتُ بشدَّةٍ من كتفيَّ، باغتني صوتٌ نسائيٌ رفيعٌ:

- قم يا عمّ ونم في سريرك

حدّقتُ إلى مصدره، تبهرني ضوءٌ ما، وسرعان ما ميّزتُ امرأةً بروبٍ أبيض، أنّبتني بطريقةٍ تُذكّرُ بعقابِ الوالدة:

- تحدِّثُ نفسك وتنامُ هنا!، كل هذا لكيلا تحتفل معنا بعيدِ ميلادِ أبي زيدٍ؟!

- أبو زيد!؟ من يكون؟

- أخبركَ في الطّريقِ إلى السّرير

- لحظةٌ واحدةٌ... لديَّ ما أُنهيه مع هذا الرّجل

- أيّ رجلٍ؟

نظرتُ إلى الطّبيبِ فلم أجده، بحثتُ عن كرةٍ ما حولي... ولكن عبثاً، سرتُ مع المرأةِ بينَ عشراتِ المسنّين العجزة، ترنّحتُ مبتسماً وكاظماً غلًّا مخيفاً، رفعَ أحدهم سلسلةً تنتهي بكرةٍ معدنيّةٍ، فقالت المرأةُ ذاتُ الرّوبِ:

«هذا أبو زيد»

عاينتُ الرّجلَ، تملّيتُ عينيهِ الحادّتينِ ووحمةَ جبينهِ، حاولتُ تذكّره فلم أستطع، ابتسمتُ لهُ، فتخلّقتْ دمعةٌ من ضبابةِ قلبي، طمستها بسّبابتي متجاهلاً تلك التي انساحت سريعاً... فوقَ الخدِّ الآخر.

ملكةُ «نهايات القصص»

عندما وُلدَتْ صديقتي «سوريّة» امتعضَ أقاربها لوفرةِ الإناث في الأسرة، واستهجنَ اسمَها سكّانُ قريتنا، وعلى الرّغم من أنّهم ألفوا أسماءً من قبيل «هنديّة» و«تركيّة» إلّا أنّي لا أعلمُ لماذا بدا حينها اسمُ «سوريّة» بتشديدِ الياءِ اسماً ثقيلاً لا يحاكي الموضة.

لاصقتني «سوريّة» في بداية حياتي مثلَ ظلّي، من المدرسة لشارعِ الحيِّ للبرّيّة، حتى خلال فترات فراقنا القصيرة كانت تطرقُ بابَ بيتنا الحجريّ كلَّ ساعةٍ مثل سحابةٍ مزكومةٍ لا تلبثُ أن تنهال حينَ نفتحُ بابنا قصصاً وأخباراً ومفاجآتٍ.

في المشفى الفرنسي الذي طبّبَ أبناء الجبل زمناً والذي استحالَ مدرسةً للبنات، وفي الشّعبة المستطيلةِ المعتمةِ بقيتُ أُجاورُ «سوريّة» في المقعدِ الأوّل مصغيةً بأذنٍ إلى المعلّم وبالأخرى إلى همسِ البناتِ ينتقدنَ ضفيرتي المدلّاةَ حبلَ حريرٍ خلف ظهري، كنَّ يشهقنَ همساً، ويقهقهنَ همساً، ويتندّرنَ كلّما فاحت من المقعدِ رائحةُ القرية، يجزمن أنَّ لبناتِ القرى رائحةً لا يضلّلها العطرُ... عشبٌ وصخورٌ وحطبٌ ودخانٌ وقطعانٌ وأتربةٌ وزرائب، تشدُّ

«سوريّة» أزري وتكمل الأهزوجة: حبقٌ أيضاً وشقائق نعمانٍ ومنثورٌ وعنبٌ وزيتونٌ ونعناعٌ ونرجسٌ وقهوةٌ مرّة، تعرفُ صديقتي كيفَ تحتالُ على الوجعِ فتستدير في الخفاء لتمدَّ لهنَّ لسانها، أمّا عن نفسي فلا أملكُ إلّاَ فرقعةَ أصابعي والنّقمةَ العمياء على بناتِ المدينة.

في شوارعِ المدينة أمشي أنا وهي مترنّحتين، نعدُّ ما راقنا من حليٍّ، ونراقبُ ارتعادَ الأمنياتِ على واجهاتِ المحالّ، نحلمُ من دونَ كلامٍ، ونعجزُ في صمتٍ صلصالَ الانتظار، فمثلنا يعيشُ ليتنظرَ وحسب... المعجزات والخوارق والمحالات الممكنةَ التّحقّق.

من باصِ قريتنا ننزلُ كما الأميراتِ المكسوراتِ، نصطدمُ ببنتِ مغتربٍ حسناء، تتطلّع إلى ثيابنا بتهكّمٍ، فتعلّقُ نظرتها القاسيةَ بأحداقنا البارقة، تدوسُ «سوريّة» سربَ نملٍ إلى آخره لتنفضَ التّحديقةَ عن قلبها، وتشدُّ على أصابعي الباردة، فتقشعرُّ روحي، تخلقُ النّظرةُ الحارقةُ لي أسباباً جديدةً للنّقمةِ على المقتدراتِ، ولاسيّما الجميلاتُ منهنَّ ذواتُ الأقراط المنمنمةِ الباهظة وفساتينِ السّاتان والشّعرِ المصفّفِ بمنتهى العناية... واللّواتي سبّبنَ لي مع الوقت رُهاب «النّظرِ في المرآة».

«سوريّة» قويّة لا تبكي مثلي، ولا تجمّعُ في حلقها جبلاً من الغلِّ على المسؤولين والمحظوظين والظّالمينَ والمظلومينَ والغيلانِ من الجنسِ الآخر، تشعرُ دوماً بأنّها أقوى من الجميع، تكتفي بضغطِ طموحاتها الفقيرة والضّحك، فالفقراءُ عموماً يجيدونَ كلّ شيءٍ حتى الحزن والنّقمة والضّحك، حتّى الاحتفالات التّنكّريّة في كلِّ عيدٍ، حيثُ يتظاهرونَ بأنّهم سعداءٌ وشِباعٌ ومتسامحون ومتحابّون، وتتحوّلُ مزحةُ «كلّ عامٍ وأنتَ بخيرٍ» إلى خدعةٍ جميلةٍ تصبيريّةٍ للعام القادم.

أشباهُ رفيقتي تليقُ بهنَّ الحياةُ، لا ينكسرنَ أمامَ لكمةٍ أو شتيمةٍ، يكبرنَ بتوالي السّنين لا بعددِ الأذيّاتِ، لقد كبرنا معاً لتتحمّلَ عنّي أغلاطي، وتمحو ما أمكنها من عثراتي، كانت ترمي لي دفترها لو نسيتُ الوظيفة، وتدسُّ مصروفها في جيبي إن اشتهيتُ لفافةَ «فلافل» حتى أنّي حينّ مرضتُ مرضاً عضالاً... ماتت عنّي، نعم ماتت... مثلما تموتُ العصافير بصعقةٍ خاطفةٍ على شريط الكهرباء... ببساطةٍ وسلاسةٍ، ماتت لكنّها ظلّتْ تطرقُ بابي كلَّ ساعةٍ وتدخلُ حتّى قبلَ أن أفتح.

- أنتِ تخيفينني يا «سوريّة»

- أنا**!!!** ولماذا؟

- نعم أنتِ**...** أنتِ ميّتةٌ، وفكرةُ أنّكِ تلجينَ البابَ المغلقَ وحدها حكايةٌ راعبةٌ**.**

- حقّاً**!!** تؤرّقكِ كثيراً فكرةُ دخولي من الباب؟ أنا على الأقل أضحك وأُفكّر وأُغنّي وأثرثر وأمدُّ لمن شئتُ لساني، هلّا نظرتِ إلى مرآتكِ وعاينتِ وجهكِ الكالح**...** صفرتهُ**...** شحوبهُ**...** سكوتكِ**...** قلقكِ**...** من منّا حيٌّ أكثر؟

- تعلمينَ أيّ أنيابٍ تملكها المرايا، كنتِ تجدلينَ شعري وتلاحظينَ جيّداً أنّي أُفضّلُ أن أتمرأى بالحجارة أو بباطنِ كفّي**.**

- أعلمُ، وأعلمُ أنّكِ جميلةٌ بقدرِ ما أقنعكِ البشعون حولكِ بقبحك، على كلٍّ سأبقى معكِ ولو اعترضتِ، وسأثبتُ لكِ أنّي حيّةٌ حقّاً**.**

- كيف؟

- سأرقص**.**

وتقومُ «سوريّة» وكأنَّ نسمةً قد بعثرتْ حولناً قُبلاً من الموسيقا، ترقصُ وترقصُ وترقصُ وترقصُ حتى لا يساورني شكٌّ في أنّها حيّةٌ حقّاً**.**

في الجامعة حاذرتِ الفتياتُ... كلُّ الفتياتِ مشاركتي غرفتي، بدأنَ يَغزلنَ الإشاعات عن كونها مسكونةً، ولاحقاً في العمل قلّما تعاطى معي الزّملاءُ تحسّباً لفكرةِ «المسِّ المعدي»، وعلى الرّغمِ من كونِ «سوريّة» متفهّمةً ولا تزورني إلّا على انفرادٍ غيرَ أنّها حسمتْ قرارها أخيراً في الرّحيل لكيلا تثيرَ حولي المزيدَ من الخرافاتِ والاتهاماتِ المروِّعة...

- حقّاً ستذهبين؟! إلى أين؟

- لا أعرف ففي الحربِ كلُّ الدّروب تؤدّي إلى الهاوية.

- لكنّكِ لا تستطيعينَ العيش فوقَ ترابٍ آخر... أنا واثقة.

- «يا ستّي» حتّى العصافيرُ التّي كانتْ تعشّشُ في ساعاتِ الكهرباءِ والشّبابيكِ والمداخنِ قد هاجرتْ... لن يتوقّف الأمرُ عليَّ.

- اعذريني أشعرُ كأنّني السّببُ في ذلك.

- لا تعتذري... هي الحرب.

- طيّب انتظري لحظة، أيُّ مكانٍ خارجَ الوطن باردٌ بالتّأكيد خذي هذه، كنزةُ صوفٍ سماويّةٌ حكتها بنفسي، جرّبيها.

أخذت «سوريّة» الكنزةَ، عانقتها وعانقتني، قبّلتني، وتمنّت لي السّلامةَ المستحيلة.

في الأيّامِ التّاليةِ لرحيلها عضّتني الوحشةُ، بتُّ أقرب لعلبةِ كرتونٍ فارغةٍ تخشخشُ في يدِ الهواء، خيّلَ إليَّ أنَّ الأرض تبخّرتْ من تحتي، وأنّني أعومُ في الفراغ، راهنتُ على أنّها ستعود لأنّها بطانتي الحيّة وأنا من دونها هيكلٌ خاوٍ، لكنّها تأخَّرتْ، وامتدَّ الغياب، فأدركتُ أنّها ولا بدَّ ماتت مرّةً ثانيةً؛ مرّةً قطعيّةً وغير نهائيّةٍ، ولربّما كانَ النّاسُ كلّهم مثلها لا يموتون بالموت وإنّما بتكرارهِ، هجَعَتْ فيَّ الخيالاتُ واستسلمتُ لحياةٍ من دونِ سند، مزّقتُ غلالةَ الحزنِ وكأوّلِ خروجٍ جائعٍ لفراشةٍ من شرنقتها حلّقتُ نحوَ رغيفِ الخبزِ الذي أمسى قمراً يُنيرُ سماءَ البلادِ، وباتَ النّاسُ.. كلُّ النّاس... يشبهونني كثيراً، صرَرٌ من الخيباتِ منقسمةٌ بينَ ربطاتِ العنقِ وربطاتِ الخبز، لا أحد أجمل، لا أحد أرفع، لا أحد يستطيعُ النّظرَ في المرآة.

وفي يومٍ اشتدَّتِ المعارك، فأمطرتِ السَّماءُ حمماً منَ الرّصاصِ وقذائفِ هاون، تبعثرَ الجمعُ في الشّارعِ العريضِ، واختلطَ الأغنياءُ بالفقراءِ وبناتُ القرى ببناتِ المدينة والجيّدونَ بالسَّيئينَ والمؤمنونَ

بالملحدينَ، هرعتُ يومها مع المندفعينَ نحوَ ملجأ في الحيِّ، قبالةَ مدخل الملجأ كانَ هنالك أكبرُ مرآةٍ شاهدتُها في حياتي، لم تكن مرآةً بحدِّ ذاتها وإنّما واجهةٌ من الزُّجاج العاكسِ لمبنى حديث، ولحظتها تماماً حدثَ أمرٌ عجيبٌ أوقفَ كلَّ شيءٍ، الطّفلُ الباكي بينَ ذراعي والدته لم يكن ظاهراً عليها، أمُّهُ المنهارةُ أيضاً، حتّى الرّجالُ المهرولون في فزعٍ أمامَ الواجهة، البيوتُ المهدّمة لم تكن ظاهرة ولا الدّخان الدّاكن المتعالي كالسُّحب، جرّبتُ أن أمشي قبالتها، أن أُلوِّح، أن أقترب، أن ألمسها، بيدَ أنّي لم أستطع أن أرى فيها أكثرَ من البيوتِ والشَّجرِ والسّماء الصّافية، تيبّستُ من ذهولٍ مكاني، هدَّتني الصّدمة، عرّتِ المرآةُ كلّ شيءٍ، ثمّةَ معانٍ عميقة لمعَتْ فجأةً في فضّتها، الواقعُ الحقيقي كانَ ينعكسُ بسلاسةٍ، غَزَلُ حمامتين، ورفرفةُ أوراق الشّجر، وخفقُ الرّيحِ بالغسيل والأراجيح على الشّرفات، أمّا الوهمُ فلم يكن مرئيّاً البتّة، أنا ومعظمُ النّاس كنّا الوهم، خلافاتنا، وعداواتنا، وأحقادنا، لا شيءَ من همومنا الكبيرة كانَ ذا أثرٍ، نحنُ الذينَ لم تعكسنا المرايا يوماً لم نوجد أصلاً، لم أُصدّق البتّة، لم أُخبر أحداً، فقد كان شيئاً شبيهاً بالأحلام العالقةِ بنهايةِ الوسن، لحظتئذٍ عَلَتْ هسهسةُ الخلاخلِ من حيثُ لم أحتسب، وبانتْ في المرآةِ

بوضوحٍ وبكنزةٍ زرقاءَ سماويّةٍ، ظهرتْ «سوريّة» كالملكات القادمات من نهايات الحكايا، لم ترحلْ كما أوهمتني، إنّها ترقصُ ببراعةٍ إلى جواري، فركتُ عينيَّ وهتفتُ:

« سوريّة... هل أنتِ حيّة؟!»

ثمَّ عدّلتُ سؤالي ورفعتُ صوتي:

«سوريّة... هل أنا حيّة؟!»

لكنّها لم تسمعني، لم ترني، واصَلَتْ طقوسَ الفرحِ، فيما رحتُ أُنقّلُ ناظريَّ بينَ كائناتِ الوهمِ الصَّارخة حولي وذلكَ العدَمِ الكبيرِ الذي عكسناهُ على المرآة، وبعدَ دقائقَ قليلةٍ من الضّياع طغتْ على أجسادنا المختفية رائحةُ المنثور وشقائقِ النّعمان والحبقِ والعنبِ والزّيتونِ والنّعناعِ والقهوةِ المرّة، بهدوءٍ... طغتْ «سوريّة» على كلِّ شيءٍ.

فهرس

الصفحة

الحالِم الأخير ٧
فساتين للبيع ١٥
كائناتُ القاع ٢٧
وحشُ الحنايا الرَّقيقة ٥٥
في القلب تماماً ٦٩
الفارس والعصفورة ٨٧
نارٌ صغيرةٌ ٩٥
سَقفُ الدَّهشَة ٩٩
رُهاب ١١٥
رفرفة ١٢٣
كرةُ النِّيكل ١٣٩
ملكة «نهايات القصص» ١٤٩
فهرس ١٥٧

وجدان يوسف أبو محمود

- قاصّة وروائية سورية. تولّد السّويداء / قرية الدور / ١٩٨٤م.
- حاصلة على إجازة في الهندسة الزراعية جامعة دمشق.
- عضو اتحاد الكتّاب العرب جمعية القصة والرواية.
- رئيسة فرع اتحاد الكتاب العرب في محافظة السّويداء.
- تكتب في الصحف والدّوريات العربيّة.

الإصدارات الأدبية:

- كسارة السكون – قصص، ٢٠٠٥، دار نور للنشر والتوزيع.
- شغب بازلتي – قصص، ٢٠٠٩، وزارة الثقافة.
- قل شيئاً – قصص،٢٠١٠، دار النايا للنشر والتوزيع.
- سحر الكؤوس الفارغة – قصص، ٢٠١٣، اتحاد الكتاب العرب.
- كرنفال الموت رقصاً – قصص، ٢٠١٨، وزارة الثقافة.
- كتاب مشترك في أدب الطفل القصص الفائزة بجائزة وزارة الثقافة.
- قميص أفروديت – رواية، دار ظمأ، ٢٠٢٢.
- نحت – قصص، اتحاد الكتاب العرب.

- الحالم الأخير – قصص، وزارة الثقافة.
- عقد الرّمّان – رواية خيال علمي للناشئة، دار ظمأ.
- بالإضافة للعديد من المقالات العلميّة والأدبية وقصص الأطفال المنشورة في الصحف والمجلات المحلية والعربية.

الجوائز الحاصلة عليها:

- حاصلة على المركز الأول في جائزة وزارة الثقافة السُّوريّة الخاصّة بأدب الطفل «القصة القصيرة» لعام ٢٠١٨.
- جائزة المركز المتوسّطي للدّراسات في المغرب عن قصّة «امتدادات» ٢٠١٩.
- جائزة دار ماهي/ مصر للنشر لأفضل قصّة موجّهة للأطفال «تأليف ورسم» ٢٠١٩.
- جائزة شاعر الشوق/ فئة المجموعة القصصية عن مجموعة «كائنات القاع» ٢٠٢٢.

م٢٠٢٢

تتأرجحُ نبضاتُهُ بينَ الغبطةِ والذُّهول، لا يُصدّق إلحاحَ المشهد، يتمالك قلبَهُ، ويجهدُ كيما يضْبطُ نَفَسَهُ المتَسارعَ مرَّةً أُخرى، يعبقُ المقهى الصَّموتُ بأنفاسها، تُبدّدُ إصقَاعَهُ، فيموجُ الهواءُ بالحنين، وتلتبسُ الحبيبةُ في عينيه، فلا يُميّزُ أكانت امرأةَ المكاتيب ذاتها أم صبيّةً من لحمٍ ودمٍ، يُقنعُ نفسهُ بأنّها حلمه، يخافُ فجأةً من وضوحه، يخافُ أنْ يظهرَ خبلهُ في المكانِ الوحيد الذي أشعرهُ بأنّه إنسانٌ محترم، تتبدّل للحظةٍ الأهداف، تختلطُ الأولويّات، الإنسان كائنٌ معقّدٌ عصيٌّ على الفهم، يكابرُ، يخنقُ لهفتهُ، يتهرّبُ من تحديقتها الدّافئة، ينتظرُ أن تتلاشى كما لم يكد يحدث. سيفتّتها بتجاهله، ستتهاوى حُتاتاً خياليّاً بلا وزنٍ، ستذروها إغماضتهُ، وسترجوهُ في الغدِ كيما يعيد تجميعَها، يصَوِّبُ نحوها نظرةً باردةً، إلّا أنّها تصمدُ أمامهُ بخيبتها الجليّة، بالماءِ يقطرُ من شعرها، تتصفّحُ عينيهِ بفمٍ ينطوي على كلامٍ كثيرٍ، تحاولُ استنطاقهُ بـ «مرحباً»، لكنّهُ لا يجرؤ على الـ «أهلاً»، يخشى أن تفتضحَ أوهامهُ، يخشى أن يبدو مجنوناً، تخفق في انتزاعِ بسمةٍ أو نظرةٍ حكّاءةٍ، يشيح عنها قلبهُ بفتورٍ، يتكسّر، يخبطُ الطّاولةَ برأسهِ، ويبكي.

www.syrbook.gov.sy
syrbook.dg@gmail.com
هاتف: 3329815 - 3329816

ISBN 978-9933-0-1495-7

9 789933 014957

5900 ليرة سورية أو مايعادلها

مطابع الهيئة العامةالسورية للكتاب

2022